

كتاب الله و عترتي
تأملات في حديث الثقلين

تأليف: السيد مهدي الحسيني

المقدمة

نص حديث الثقلين

الديباجة

المقدمة

تمهيد

الدلالة الأولى

أهل البيت ؛ أعلم الناس بعد النبي

الدلالة الثانية

أهل البيت ؛ ملاذ الخلق أجمعين

ص: ١

الدلالة الثالثة

أهل البيت ؛ قرناء القرآن

تنبيه حول حقيقة التقلين و اتحادهما

الدلالة الرابعة

عصمة أهل البيت

الدلالة الخامسة

أهل البيت ؛ خلفاء الله ورسوله

الدلالة السادسة

أهل البيت ؛ أئمة المسلمين

الدلالة السابعة

أهل البيت ؛ طريق الهداية الإلهية

الدلالة الثامنة

وجود العترة و القرآن معاً فى كل زمان

من هم أهل البيت؟

بحث فى هوية أهل البيت

بحث سند الحديث

أسناد حديث الثقلين وطرقه

نهاية المطاف

أما بعد..

نصوص الحديث فى الصحاح والمسائيد

كتاب الله و عترتى

تأملات فى حديث الثقلين

ص: ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين كما هو أهله ولا إله غيره والحمد لله الذى بيّن لنا مناهج اليقين فأكمل بذلك دينه وأتم نعمائه وخصنا بسيد أنبيائه ونخبة أصفياه وخاتم سفرائه سيّدنا ونبيّنا محمّد حبيب الرحمن، فاستنقذنا به من شفا جرف النيران، وأكرمنا بأهل بيت نبيّه الطيّبين الظاهرين المعصومين المكرّمين الأصفياء المنتجبين، الهادين إلى صراط الحقّ والصواب، الذين أذهب الله عنهم الرجس بنص الكتاب، واللعنة الدائمة على أعدائهم من الآن إلى قيام يوم الحساب .

كان الجوّ حاراً إلى درجة لا تطاق.. وكان السراب يلمع فى الأفق ليتراءى للمرء أنه بقرب ساحل محيط هائج، ولكنه سرعان ما يفيق من ذلك الخيال بحرارة الرمال الجافة وهى تلتهب تحت قدميه.. فكل قد وضع شيئاً من ملابسه تحت رجله ليقى بذلك حرارة الرمال.

لكن لم يكن أحد ليأبه بحرارة الشمس الساخنة وجفاف الصحراء القاحلة لبضع دقائق وهم يترقّبون مقولة النبي بفارغ الصبر، وذلك لأنّ تلك الحشود كانت قد اجتمعت بأمر من سيدها ومولاهها، وهو السبب الذى كان الناس قد خرجوا فى هذا السفر القاسى - والممتع فى آن واحد - امتثالاً لأمره وتّباعاً لسيرته.

ثم ارتقى النبي منبرا قد صنع من أكوار الإبل وهو بانتظار القوافل المتأخرة لتلحق، والمتقدمة لتعود، حتّى يلقي خطابه الجماهيرى الذى بدا مهماً للغاية.. فقد دعا النبي (ص) ذلك الحشد الغفير إلى كلمة كانت ستغيّر مجرى التاريخ إلى يوم القيامة، وإلى قضية كانت ستضع بصماتها الخالدة على مصير العالم بأسره.

لقد شهد ذلك الموقف التاريخى أكثر من مائة ألف رجل وامرأة من المسلمين الذين كانوا فى طريق العودة من حج بيت الله الحرام الآخر بصحبة رسول الله (ص) ، حتّى أوقفهم النبي بجوار عين اشتهرت بغدير خمّ.

"يا ترى ما الذى دعا النبي لمثل هذا؟ وفى هذا المكان بالذات، وتحت هذه الظروف القاسية؟!"

فلما اجتمع الحجاج أخذ النبي بيد أخيه [١] وابن عمه [٢] وصهره [٣] ووصيه [٤] ووارث علمه [٥] وحجة الله على خلقه [٦] ووليد الكعبة [٧] وربيب حجر النبوة [٨] وأوّل القوم إسلاماً [٩] وأقومهم إيماناً أمير المؤمنين [١٠] ويعسوب المتقين وإمام المسلمين [١١] وقائد الغرّ المحجلين ومولى الموحدّين أسد الله الغالب [١٢] على بن أبى طالب (ع)، فرفعها النبي عاليا حتّى بان بياض إبطنه.. وقال فيما قال: "يوشك أن أدعى فأجيب" - ثم قال - "ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟"

فقال الناس من دون تردّد ولا ارتياب: بلى.

فقال قولته التي مازالت تدوّى عبر العصور: "من كنت مولاه فعلى مولاه" [١٣] ثمّ خطب فيهم [١٤] وأخبرهم بأنه سيلتحق بالرفيق الأعلى، فبكى الناس وخيّم عليهم ضباب من الحزن والأسى على فقد نبيهم الذي أنقذهم من شفا حفرة من النار منذ زمن ليس ببعيد، لكنّه طمأنهم بأنه سيخلف فيهم من يقوم مقامه ويحذو حذوه، ونصب لهم علما هاديا يرشدهم إلى طريق الحق والهدى، ويحل لهم ما يحل الله ويحرّم عليهم ما حرّم الله ويفرّق لهم بين الطيّب والخبيث وينير لهم طريق الحق والصواب ليسيروا على هداه، يدفع عنهم الخلاف ويصونهم من الضلال وأمرهم باتباعه فقال:

(إنى تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا؛ كتاب الله وعترتى أهل بيتى، وقد نبأنى اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض).

فبلّغ الرسالة ونفّذ ما أمره الله به فى قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته).

فكان كلّ ما تحمّله النّبىُّ من أعباء الرسالة وجهاده ومعاناته يذهب سُداً لو لم يبلّغ هذا الأمر العظيم. فلما بلّغ ولم يبق مجال للشك والشبهة وأخذ البيعة منهم واحداً تلو الآخر، جاءه واحد ممن سيكون خصما له عمّا قريب قائلاً وهو يضافحه للمبايعة: "بخ، بخ لك يا على، أصبحت مولاي ومولا كل مؤمن ومؤمنة.." [١٥].

ثم نزل الأمين بقوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً). فكان كمال الدين وتمام النعمة بنصب على بن أبى طالب (ع) ولياً و أميراً. وكان هذا الموقف أحد المواقف التي نصب فيها النّبى الإمام علياً (ع) أميراً للمؤمنين وذكر حديث الثقلين..

حديث الخلافة العظمى..

حديث الولاية الكبرى..

حديث الوصية الغراء..

..وهو الذى نحن بصدد استكشاف حقائقه السامية فى هذه الرسالة المختصرة، حيث أوردت بعض الأدلة التي استنبطت من كلمات النّبى الأكرم (ص) الذى لا ينطق عن الهوى، إن هو إلّاّ وحى يوحى، وذلك حتى يتجلى للقارئ الحق الصريح الواضح فى أجلى مظاهره.

وقد أوردت بحثا موجزا فى هوية أهل البيت المعنيين بلفظ العترة، كما أوردت أيضا بحثا فى سند هذا الحديث الذى تواتر نصّا ومعنا وأجمع عليه المسلمون كافة وأوردوه فى كتبهم المعتمدة.

وأقدم هذا الجهد المتواضع، هدية إلى سيدي ومولاي وإمامي ومقتدای المهدي المنتظر والحجة الثاني عشر، ولي العصر وصاحب الزمان وإمام الإنس و الجان، مهدي هذه الأمة وطاووس أهل الجنة الحجة بن الحسن العسكري، راجيا من الله القبول واستمد من المولى -عز و جل- العون والتوفيق لما يحب ويرضى وله الحمد أولاً وآخراً.

نذكر فيما يلي بعض ما ورد على لسان النبي (ص) من أحاديث تتضمن هذه التعابير أو ما يشابهها في فضل أمير المؤمنين (ع) :

[١]- سنن الترمذي: ج ٥ ص ٥٩٥، ينابيع المودة: ج ١ ص ٥٥، المستدرک علی الصحیحین: ج ٣ ص ١٥ ح ٤٢٨٩، فرائد السمطين: ج ١ ص ١١٦ ح ٨١، الصواعق المحرقة: ص ١٢٢، تاريخ ابن عساکر: ج ١ ص ١١٧؛ وكذلك فإن أمير المؤمنين (ع) هو نفس رسول الله (ص) كما في آية المباهلة؛ راجع صحيح مسلم: ج ١٥ ص ١٧٥.

[٢]- فهو ابن أبي طالب عم النبي (ص).

[٣]- كشف الغمة للأربلي: ج ١ ص ٣٥٣، أعلام النساء: ج ٤ ص ١٠٨، الطبقات: ج ٨ ص ١٩.

[٤]- ينابيع المودة: ص ٢٥١، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب: ج ١ ص ٨٨ رقم ١٤٢.

[٥]- كنز العمال: ج ١١ ص ٦٠٠ - ٦١٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٢٠٣، الغدير للأميني نقلاً عن كتب السنة: ج ٣ ص ٩٥ - ٩٩.

[٦]- ينابيع المودة: ج ١ ص ٤٩٥.

[٧]- المستدرک علی الصحیحین للحاکم: ج ٣ ص ٤٨٣، المناقب لابن المغازلي: ج ٦ ص ٢٢، تذكرة الخواص: ص ٢٠، الغدير عن أعلام السنة: ج ٦ ص ٢٢، قد ورد أيضاً: "يعسوب المؤمنين" كما في ينابيع المودة: ص ١٨٥، تذكرة الخواص: ص ١٦.

[٨]- تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٥٧، السيرة النبوية بهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٧٦.

[٩]- تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٥٥، مستدرک الحاکم: ج ٣ ص ١٢١، الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٤٨٤، تاريخ بغداد: ج ١ ص ١٣٤.

[١٠]- ينابيع المودة للقندوزي: ص ٢٣٨.

[١١]- تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٩٩، تذكرة الخواص لابن الجوزي: ص ١٣.

[١٢]- مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ٣٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٢ ص ٨٢.

[١٣]- راجع موسوعة "الغدير في الكتاب والسنة والأدب" للعلامة الشيخ عبد الحسين الأميني ، وكذلك موسوعة "عقبات الأنوار" للعلامة الشيخ مير حامد حسين الهندي .

[١٤]- الغدير: ج ١ ص ٢١٤ - ٢٢٩.

[١٥]- فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج ١ ص ٤٣٢، الصواعق لابن حجر في الفصل الخامس من الباب الأول و الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ج ٨ ص ٢٩٠ والخوارزمي في المناقب: ص ٩٣ - ٩٤ الخ..

تمهيد

إن حديث الثقلين من أصح الأحاديث سنداً ودلالة ومحتوى، وهو حديث جامع وشامل لمقامات القرآن والعترة الطاهرة، فلو لم يحدثنا النبي الأكرم (ص) إلاّ به لكفى، لما يحتويه من معارف وأدلة قطعية في فضل أهل البيت و وجوب الإقتداء بهم والتمسك بعروتهم.

أما معنى ألفاظ الخبر فهو واضح لمن كانت له أدنى معرفة باللغة العربية. فقد بين النبي (ص) فضل أهل بيته على نحو الإيجاز والإعجاز بأفصح لسان وأروع بيان، لا يدع مجالاً لإنكار منزلتهم الرفيعة عند الله جلّت قدرته. ولذلك فإنه ينبغي لهذه الكلمات أن تكتب بدواة من ماء الذهب على صحيفة من فظة مرصعة بالماس والمجوهرات لعلو شأن صاحبها وسمو مقام مدلولها و ستبقى مع ذلك مجهولة الشأن و القدر.

ويجب التذكير بهذا لكي لا نمر عليها مرور الجهلة دون توجه وتدبر غافلين الكنز الذي خبئ تحت أحرفه، بل ينبغي لنا أن نتأمل كلماته الأمانة واحدة فواحدة، وأن نمعن النظر في كل منها لأن فيها لعماً جمّاً لو وُجد له حملة.

وإلّكم فيما يلي بيان وشرح مختصر لبعض ما ورد في هذا الحديث من خصوصيات لأهل البيت لا يتقدمهم فيها أحد، وفضائل لا يلحقهم فيها بشر، وشرف لا يسبقهم إليه خلق أبداً..

أما القرآن فهو بصريح بيانه نور [١] وحكمة [٢] وموعظة [٣] وشفاء [٤] ورحمة [٥] وذكر [٦] وهدي [٧] وبرهان [٨] وتذكرة [٩] وميزان [١٠] وفرقان [١١] وبيان [١٢].

ص: ٧

وقد روى في فضله عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن آبائه (ع) عن رسول الله (ص) أنه قال: (أيها الناس، إنكم في زمان هدنة، وأنتم على ظهر السفر والسير بكم سريع، فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود، فأعدّوا الجهاز لبعث المفاز). فقام المقداد فقال: يا رسول الله، ما دار الهدنة؟ قال: (دار بلاء وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائب، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعروف لمن عرفه)[١٣].

فهذا هو مقام القرآن.. فلنلق نظرة على منزلة قرآنه..

[١]- سورة المائدة: الآية ١٨، سورة النساء: الآية ١٧٤.

[٢]- سورة الإسراء: الآية ٤٩، سورة الزخرف: ٦٣.

[٣]- سورة يونس: الآية ٥٧.

[٤]- سورة يونس: الآية ٥٧، سورة فصلت: الآية ٤٤.

[٥]- سورة يونس: الآية ٥٧، سورة الجاثية: الآية ٢٠.

[٦]- سورة آل عمران: الآية ٥٨.

[٧]- سورة البقرة: الآية ١٨١، سورة آل عمران: ١٣٨.

[٨]- سورة آل عمران: الآية ١٣٨، سورة النساء: الآية ١٧٤.

[٩]- سورة الحاقة: الآية ٤٨.

[١٠]- سورة الحديد: الآية ٢٥.

[١١]- سورة الفرقان: الآية ١.

[١٢] - سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

[١٣] - موسوعة "بحار الأنوار" الحديثية للعلامة الفهامة المحدث الخبير البارع الفذ الشيخ محمد باقر المجلسي - أعلى الله مقامه - كتاب القرآن: ج ٩٢ ص ١٧.

الدلالة الأولى:

إذا وضعت شيئين في كفتي ميزان فتساويا، فإن ذلك يعنى أنهما متساويين من حيث الوزن.. وإذا تساوى شيان من حيث الشكل والمظهر أيضا، فذلك يرمز إلى اتساع دائرة الاشتراك بينهما.. كما أن إطلاق تسمية معينة على هذين الشيئين يشير إلى نقطة الاشتراك بينهما، مع العلم أن من الممكن أن تكون هناك نقاط اشتراك أخر، لكن التسمية المثناة تتبع نقطة الاشتراك التي يراد التركيز عليها.

فقولنا "هذان رجلان" إشارة إلى شخصين مشتركين في الرجولة، ولا يهمننا وزنهما أو شمائلهما لأننا نريد إعطاء الصدارة إلى خصلة التذكير وكون كل منهما رجل.

فإطلاق تسمية "الثقلين" على الكتاب والعترة يعنى اشتراك هذين الشيئين في كونهما ثقلين والثقل في اللغة يعنى الشيء الخطير النفيس.

فمجرد اقتران العترة بالقرآن في هذه الخصلة بالذات دليل على عظم خطرهما وجلالة شأنهما وعلو مقامهما وأعلميتها من سائر الخلق بعد النبي (ص)، وذلك لأن النبي قد أرجع الناس جميعاً إليهم بما في ذلك الصحابة، ولم يستثن أحدا من الخلق، ولم يرجع أهل بيته إلى أحد، ولم نشهد حديثاً أو موقفاً يأمرهم فيه النبي (ص) باتباع أحد من الناس.

فالناس بحاجة إليهم وليسوا بحاجة إلى الناس، وقد جعل النبي كلاً من الكتاب والعترة قرينين وعدلين، وربما كان "الثقل" بكسر التاء وتسكين القاف بمعنى الثقل لأن التمسك بهما ثقيل.

ص: ٩

فلو كان في الأمة شخص أو مجموعة في مقام العترة أو أفضل منها، لما أمر النبي (ص) بالتمسك بالعترة بشكل خاص بل لأمر العترة باتباع ذلك الشخص أو الأشخاص، ولما خصص الهداية للأمة في التمسك بعترة وأهل بيته ولما أفردهم في ذلك، كما خصص ذلك بالأخذ بالقرآن والجمع بينه وبين أهل البيت (ع).

كما أن الحديث يدل على تمييزهم وعلمهم بتفاصيل الشريعة الغراء، وذلك لاقتنائهم بالكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ولذلك فإن قولهم ليس من باب الاجتهاد بالرأى - بالمعنى المصطلح - أو القول بالقياس والحدس وما شابه ذلك، وإنما هو بمثابة التشريع وفي مقام بيان أحكام الله عز و جل. وهنالك روايات أخرى تدل على علمية أهل البيت، ومنها قول النبي: (أعلمكم على) وقوله: (أنا مدينة العلم وعلى بابها، فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها).. و أوضح مدلول على أعلميتهم من خلال حديث الثقلين هو قول النبي (ص) في كثير من نصوص الحديث - كما سيأتي لاحقاً - : (لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)، ولو أردنا أن نذكرها كلها لطلال بنا المقام ولاستلزم مجلدات عديدة من الكتب. وسأشير إلى جانب آخر من هذه المسألة لاحقاً [٨] عند تحليل حقيقة عدم الافتراق ما بين القرآن والعترة.

١- في نهاية الدلالة الثالثة - "تنبيه حول حقيقة الثقلين واتحادهما"

الدلالة الثانية:

أرجع رسول الله (ص) الأمة كلها إلى أهل البيت كما أرجع الأمة أيضاً إلى القرآن الكريم، أي جعلهم قرائن القرآن، فهمم القرآن في حيز واحد من حيث وجوب الإتيان وعدم المخالفة. وذلك بدلالة قوله W: (لن يفترقا) أي أن القرآن لن يفترق عنهم وأهل البيت لن يفترقوا عن القرآن.

ص: ١٠

فالأول: أى عدم افتراق القرآن عن أهل البيت (ع) يدلّ على أن جميع أفراد الأُمَّة بمختلف طبقاتهم وأصنافهم محتاجون إلى العترة، وذلك لأنّ كلّ الناس، ولكي يفهموا أحكام الدين ووظائفهم الدينية، وكيفية القضاء ورفع النزاع، وإصلاح الأُمَّة ورفع الشبهات ومعرفة حقوق بعضهم على بعض، وإصلاح أمور المعاش والمعاد وطرق التقرب إلى الله عز و جل. وبشكل عام في كل أمورات دينهم وديناهم، محتاجون إلى القرآن وعلمه.

ولأنّ القرآن لن يفترق عن العترة، فالناس جميعا بحاجة إلى العترة. وبما أن القرآن الكريم جامع لكافة ما يحتاج إليه الخلق لكنه بصريح بيانه فيه محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وظاهر وباطن، كما يقول تعالى: (هو الذى أنزل عليك القرآن فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهاً فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) ولا يستطيع الناس استنباط جميع ما يحتاجون إليه من محكماته بمفردها وليس لهم سبيل إلى تفسيره وتأويل متشابهاً واستخراج العلوم من بطونه إلاّ بالرجوع إلى أولئك الذين أختارهم الله ليكونوا عبية لعلمه وأشار إليهم فى موارد شتى حيث قال تعالى: (لا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون فى العلم) وقال أيضا: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وليس أهل الذكر إلاّ أهل البيت (ع) - كما سيأتى التنبيه عليه لاحقا -

أما الثانى: أى عدم افتراق العترة من القرآن، فإنّه يدل على أن أهل البيت عندهم جميع علوم القرآن الكريم وهم بذلك ليسوا بحاجة إلى أحد من البشر. فليس عند أحد من البشر علمٌ صحيح لا يوجد فى القرآن لكي يكون بذلك قد تفوّق على القرآن وأهل البيت (ع).

وعلى ما مرّ، ولأنّ النبي (ص) أخبر الناس بأن القرآن لن يفترق عن العترة والعترة لن تفترق عن القرآن، فكل من يحتاج إلى القرآن - وليس هنالك من لا يحتاج إليه - فهو محتاج إلى العترة الطاهرة. وهم وحدهم يعلمون جميع علوم القرآن، لأنّهم إذا لم يكونوا كذلك لافترقوا عنه فى ما لم يعلموه منه. ولأنّهم لن يفترقوا عن القرآن، فلن يكون هنالك شيء لا يعلمونه. فنبت لمن حكّم عقله أن الناس كما أنّهم بحاجة دائمة إلى القرآن الكريم فهم أيضا بحاجة دائمة إلى العترة الطاهرة ولأنّ العترة وعت جميع علوم القرآن فهى غير محتاجة إلى أحد قط.

و واضح أنه لو كان هنالك أحد من الأُمَّة - سوى العترة الطاهرة - محيط بجميع علوم القرآن، لوجب أن يذكره النبي ويجعله قرينا لعترة ولأمر بالتمسك به ولاستثناءه من اتباع أهل البيت (ع) لعدم احتياجه إليهم. وبما إنّ أمر جميع الأُمَّة بالتمسك بأهل البيت ولم يستثن فى ذلك أحد، فلن تبقى شبهة لذوى الأبواب فى أن الجميع محتاجون إليهم وأنه ليس هنالك أحد من أفراد الأُمَّة عالم بجميع علوم القرآن سواهم. وسيأتى تفصيل هذا الباب لاحقا أن شاء الله.

لا ريب في أن كل ذى لب إذا أمعن النظر في حديث الثقلين سيجد بكل وضوح أن اقتران أهل البيت بالكتاب دليل على وجود جميع علوم القرآن في حوزتهم، ذلك لأنهم لو لم يحيطوا بكلّ علومه علماً لافترقوا عنه فيما يجهلون، لأن الجاهل بالشىء منفصل عمّا يجهل وهذا أمر بديهى. ولو افترضنا أنهم لا يعلمون بعضه لما كان التمسك بهم موجبا للأمن من الضلالة، فالمرء - في هذه الصورة - عندما يرجع إلى العترة في أمر من أموره لا يأمن من السقوط في الخطأ المؤدى إلى الضلالة والانحراف، إذ أن احتمال جهلهم ذلك الموضوع وارد في كل حين وهذا يناهى اليقين والطمأنينة اللازمة في الأمور الدينية. لذلك فإن اتباع غير المعصوم، مهما بلغ من درجات الكمال سيؤدى إلى السقوط في هاوية الضلال لا محالة، فاحتمال صدور الخطأ عن عدول القرآن - أى أهل البيت (ع) - باطل لقول الرسول: (لن تضلّوا بعدى أبداً).

كما لم تكن لأحد الجرأة في الإدعاء بأنّ عنده علم الكتاب سوى أهل البيت، فهم المعنيون بقوله تعالى: (لا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم) وفي قوله تعالى: (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وفي قوله تعالى: (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) وهم أهل الذكر في قوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)، فقد روى عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: (للذكر معنيان، القرآن ومحمّد، ونحن أهل الذكر بكلا معنييه، أما معناه القرآن فقوله تعالى: (وأنزّلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وقوله تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وأما معناه محمد فالآية في سورة الطلاق: (فاتّقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً! رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّناً لئخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور)[١].

وكذلك قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا) فقد نزلت في أهل البيت، وقد قال بذلك مجموعة من المفسرين، ومنهم ابن حجر في كتابه "الصواعق المحرقة" في باب "ما أنزل في أهل البيت من القرآن".

وذكرها القندوزى في كتابه "ينابيع المودّة" حيث قال في قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً): "أخرج الثعلبى عن أبان بن تغلب عن جعفر الصادق (ع) قال: نحن حبل الله الذى قال الله عز و جل: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا)". وأيضاً أخرج صاحب كتاب المناقب عن سعيد بن جبر عن ابن عباس عنهما قال: كنا عند النبي (ص)، إذ جاء أعرابى فقال: يا رسول الله سمعتك تقول واعتصموا بحبل الله، فما حبل الله الذى نعتصم به؟ فضرب النبي (ص) يده فى يد على وقال: "تمسكوا بهذا هو حبل الله المتين".

ولم يدع أحد مهما بلغ من العلم، أنه محيط بجميع علوم القرآن ظاهره وباطنه وأنه يعلم تأويل القرآن و تفسيره كلّ، وأنه قادر على استخراج جميع الأحكام والحقائق منه، غير الأوصياء الإثنى عشر المعصومين من أهل بيت خاتم الأنبياء (ص) الذين أخذوا عن النبي (ص) والذى يأخذ بدوره عن باريه تعالى شأنه وتقدّست أسمائه.

فقد قالوا وأعلنوا بأنهم أهل الذكر والراسخون في العلم وأن علم الكتاب عندهم وقد أقر بذلك كل أعدائهم ولم يغلبهم أحد ممن تحدّاهم بالعلم والحكمة والمعرفة الإلهية التي ورثوها من جدّهم رسول الله (ص).

ولا يمكن الفصل بين القرآن والعترّة، لأن ذلك في مثابة الفصل بين المنهج والمعلّم والنظرية والمطبّق.

فإنّ فك عقد المعاني القرآنية وألفاظه التي كثيراً ما تحمل أكثر من معنى واحد، مسؤولية لا يتحمّلها إلاّ الراسخون في العلم. فترى كلّ فرقة تستدلّ بآيات من الذكر الحكيم وتزيّن بها آرائها وأفكارها لأنّ "القرآن حمّال ذو وجوه" أي أن مصطلحاته ربّما تأخذ أكثر من معنى واحد وربّما كانت المعاني متناقضة في نظرنا القاصر، ويمكن أن يقال أن بعض ألفاظ هذا النص قد حوت على ما يصطلح عليه بمفارق طرق متعدّدة للمفردة الواحدة، إذ يصعب الوصول إلى مقصود البارئ عز و جل من كلامه الذي هو في الحقيقة عصارة رسالة خاتم الأنبياء وآخر ما سينزل به الوحي إلى يوم القيامة. فكان لا بدّ أن يحتوي الكتاب العزيز على كلّ ما يحتاج إليه الناس وبصورة إعجازية مختصرة مكثفة ليوصل إلى السعادة الأبدية والخلد في الجنان وليكون حجة على الخلق أجمعين حتّى قيام يوم الدين.

ولو صحّت مقولة عمر: "حسبنا كتاب الله" لانتفت الحكمة في إرسال الأنبياء والرسل بما في ذلك النبي المصطفى (ص) ولما أحتاج الناس إليهم، بل لاكتفى البشر بكتاب ينزل عليهم من السماء يقع في مئات المجلّدات يشرح فيه الخالق كلّ صغيرة وكبيرة بالتفصيل لكي يفهمه العالم والجاهل والجميع حتّى تتمّ الحجة عليهم!

ولكن اقتضت حكمة الله أن يرسل الأنبياء والأوصياء، فقال عز من قائل: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) [٢]، وهذا يدلّ على أن فهم الكتاب لا يكون إلاّ بتعليم الرسول وقد قال الله تعالى: (وأنزّلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلّهم يتفكّرون) [٣]، وهذه الآية صريحة بأننا لكي نفهم القرآن بحاجة إلى بيان النبي وشرحه له وفك رموزه وتفسيره وتعيين محكمته من متشابهة وناسخة من منسوخة وخاصّه من عامّه، وإفهامه للناس على قدر عقولهم ومستواهم العلمي وتحملهم للمعارف الإلهية، وما إلى ذلك من شرح وتبيان عميقين. وبما أنّ مستويات الناس تختلف عبر العصور والأزمنة فلا بدّ من شارح للقرآن يفسّر لكلّ جيل حسب مستواهم العلمي. ويجب أن يكون هذا الشارح ملماً بجميع علوم القرآن ومعارفه، وهذه الصفة لا تكمل إلاّ في أهل البيت (ع) لعدم افتراقهم عن القرآن وعدم افتراقه عنهم.

وأما قوله تعالى: (لا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربّنا وما يذكر إلاّ أولوا الألباب) فدليل واضح في تخصيص التأويل بالله والراسخين في العلم، لا عامة الناس. ولو قيل أن الواو في قوله (والراسخون) واو استثنائية ولا ربط بين شطري الآية، فهذا يخرج كون النبي (ص) - هو الذي نزل عليه الفرقان - عالماً بتأويل القرآن. فما فائدة كتاب لا يعلم تأويله أحد من البشر ولا سبيل لتعلّمه حتى من النبي الذي جاء به؟! ولا مجال للبحث في علم الرسول (ص) الذي هو أفضل الراسخين في العلم، وقد علّمه الله عز و جل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله، وصيغة الجمع في قوله تعالى: (والراسخون) دليل على أن هنالك مجموعة تتصف بهذه الميزة، فأوصياء النبي يعلمونه كلّ

وهم أهل البيت الذين ما زالوا بصحبة القرآن يدورون معه حيث ما دار.. وإنه لمن البديهي أن الكلمات والألفاظ واللغة بشكل

ص: ١٣

عام ليست كافية للتأويل، إذ لو كان كذلك لكان يناله الكل، وإذا ما كان للاستثناء والتخصيص وجه، فتبين أن الراسخين هم النبي وأهل بيته (ع) الذين أخذوه عن النبي (ص) كما أخذته الرسول عن الله عز وجل.

قال أمير المؤمنين (ع): (تالله لقد علمت تبليغ الرسالات، وإتمام العبادات وتمام الكلمات، وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضيء الأمر، ألا وإن شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة، من أخذ بها لحق وغنم، ومن وقف عنها ضل وندم).

ثم إن تقسيم القرآن إلى محكم ومتشابه وغير ذلك دليل على أن الله جعل النبي وأهل بيته أئمة يهدون بأمره لتعليم كلام الله المجيد. فلو لم يجعل ذلك لكان إخلالا في الحكمة فيكون القرآن الذي هو وسيلة للهداية، سببا للتحيّر والضلالة. يقول الله تعالى: (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً)، فلا نستطيع أن نقول "حسبنا كتاب الله" و نقف عند ذلك.

فالقرآن يصرّح بأن مهمة النبي هي تعليم الكتاب وتبيينه لهم ولذلك كانت السنّة والأحاديث هي التي تفسّر وتشرح وتوضّح وتخصّص وتقيّد وقد وردت من النبي (ص) في عهده، ومن أهل بيته من بعده لأنهم ورثته وأوصيائه. فمن دون النبي وأهل بيته، من الذي يجرؤ أن يفسر قوله تعالى: (كهيعص) أو: (ألم) أو: (ق) أو غيرها من المقطعات والمتشابهات من دون الرجوع إلى السنة الشريفة؟ ومن الذي يجرؤ أن يشرح المتشابهات التي لا تفهم إلا بعد إرجاعها إلى المحكمات المعيّنة من قبل النبي وأهل بيته بالإضافة إلى تفسيرهم وتأويلهم لها؟

هذا وقد ورد عن أهل البيت تفسيراً دقيقاً في غاية الروعة لحرف (ق) وأنه (جبل محيط بالأرض كإحاطة السوار بالمعصم، وخضرة السماء منه، ولولاه لساخت الأرض بأهلها) الأمر الذي يمكن أن يعنى الغلاف الواقى والذي يشير إليه حرف القاف، وهو صيغة الأمر من (وقى)، (يقى)، وهو من حيث الحجم كالجبل الذي يضرب به المثل في كبر حجمه، ولولاه لما رأينا انعكاس النور في السماء ولما كانت الحياة ممكنة على الأرض حيث النيازك والشهب تتساقط علينا بالألوف.

وبالمقارنة بين ما ورد من تفسير أهل البيت للقرآن وما ورد من غيرهم، نكتشف أن منبع علمهم من علم الله الذي لا ينفد. ولا يمكن لأحد أن يفسر القرآن بشكل صحيح دون الأخذ عنهم. ففي سبيل المثال لو أخذنا بظاهر بعض الآيات كقوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم) فأول ما يتبادر إلى أذهاننا القاصرة هو أن الله يد كما أن لنا يد! ولذلك قال البعض بالتجسيم، فصاروا بذلك قد حدّوا الله وعدّوه وشبهّوه بخلقه وتوهموه وعبدوا ما تصوّرتهم أو هامهم جهلاً بغير علم فتعالى الله عمّا يصفون علواً كبيراً.

ولكننا إذا أرجعنا هذه الآية المتشابهة إلى آية محكمة كقوله تعالى: (ليس كمثله شيء) علمنا أن الآية السابقة لا تعنى اليد كعضو من أعضاء الجسم البشرى الناقص القاصر الضعيف بالذات، والله منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام. فاليد في الآية التي مرّ ذكرها القوة - كما أشير إلى ذلك في روايات أهل البيت (ع) - وليس حيث ذهب المشبهة وهذا اصطلاح مستعمل في اللغة ولا ينافي ظاهر الآية مطلقاً.

قال في لسان العرب: "العرب تقول: (ما لي به يد) أى مالى به قوّة. واليد الغنى والقدرة". وكما هو واضح فإن كلام العرب وحي

وإشارات واستعارات ومجازات، ولهذا كانت اللغة العربية فى المرتبة العليا من الفصاحة والبلاغة، وكلام الله أفصح الكلام. ولا يمكن فك هذه الرموز والإشارات إلا لمن أوتى علم الكتاب وجعل عدلا له، ولا بدّ من الرجوع إلى قرناء القرآن - أى أهل بيت

ص: ١٤

النبوة (ص) - لكى يتبين مقصود الآية الكريمة وترفع الشبهة الواردة.

وكذا فى كثير من الآيات الأخرى حيث لا تصل عقولنا القاصرة إلى معنى واضحا ومحكما إلا بعد الرجوع إلى العترة الطاهرة، ونورد هنا مثلا آخرًا للتوضيح:

سأل ابن أبى العوجاء هشام بن الحكم، فقال له: أليس الله حكيمًا؟

قال: بلى هو أحكم الحاكمين.

قال: فأخبرنى عن قول الله عز و جل: (فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن أن لا تعدلوا فواحدة). أليس هذا فرض؟

قال بلى.

قال: فأخبرنى عن قوله عز و جل : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) أى حكيم يتكلم بهذا؟

فلم يكن عنده جواب، فرحل إلى المدينة إلى أبى عبد الله - الإمام الصادق (ع) - فقال: يا هشام، فى غير وقت حج ولا عمره.

قال: نعم جعلت فداك لأمر أهمنى، إن ابن أبى العوجاء سألنى عن مسألة لم يكن عندى فيها شىء.

قال: وما هى؟

فأخبره بالقصة فقال له أبو عبد الله (ع): أمّا قوله عز و جل (أنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن أن لا تعدلوا فواحدة) يعنى فى النفقة وأمّا قوله: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) يعنى فى المودة.

قال: فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب وأخبره، قال: والله ما هذا من عندك. (فبهت الذى كفر).

فمن دون شرح الإمام وتبيينه لما خطر هذا المعنى على بال بشر، فقد قال الإمام الحسن العسكرى (ع) لفيلسوف العراق فى زمانه؛ إسحاق الكندى الذى كان يكتب كتابا فى تناقضات القرآن: (فما يدريك لعله قد أراد - الله - غير الذى ذهبت أنت إليه، فتكون واضعا لغير معانيه).

وحدهم من ادّعوا العلم بالقرآن ولم يقهرهم أحد بل لم يقهر أحد أصحابهم وتلامذتهم فكيف بهم. وكان أمير المؤمنين يقول

حتى آخر ساعات حياته الشريفة: (سلوني قبل أن تفقدوني)، و(سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به وأسألوني عن كتاب الله)، وكان بعض الأئمة يقولون: (إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عنه من كتاب الله)، ولم يجرؤ أحد أن يقول كما قالوا وأن يبين أحكام الله عن علم ويقين من كتاب الله مثلهم.

ص: ١٥

قال الإمام الحسين (ع): (نحن حزب الله الغالبون، وعتره رسول الله (ص) الأقربون، وأهل بيته الطيبون، وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله (ص) ثاني كتاب الله تبارك وتعالى، الذي فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، لا يبطينا تأويله، بل نتبع حقايقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عز و جل: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتهم في شيء فردوه إلى الله والرسول) وقال: (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا).

فطريق العلم بتأويل الكتاب ليس إلا بالتعليم من رسول الله (ص) وأهل بيته المعصومين الراسخين في العلم. وعلم التأويل مختص بالله تعالى وبرسوله ومن تعلم منه تعليما وافيا جامعا لجميع جوانب علوم القرآن وشعبه وراميه، لا من سمع منه شيئا وغابت عنه أشياء. فلا يفهم وجوه القرآن ومغازيه ومعانيه وما هو المراد منه إلا النبي بتعليم إلهي وأوصيائه بتعليم نبوي وعمامة الناس بمقدار ما تعلموه منهم.

قال الله تعالى: (ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) [٤]. فقد قرن الله تعالى شهادته على حقانية النبي الأكرم بشهادة (من عنده علم الكتاب) وهم أهل البيت (ع) لأنهم الذين لا يفترون عن القرآن ولا يفترون عنهم الكتاب كما مر.

عن منصور ابن الحازم قال: قلت لأبي عبد الله (ع): إن الله أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون بالله. قال : صدقت. قلت: إن من عرف أن له رباً، فينبغي أن يعرف أن لذلك الربّ رضا وسخطاً، وأنه لا يعرف رضاه وسخطه إلا بوحي أو رسول، فمن يأتيه الوحي فقد ينبغي له أن يطلب الرُّسل فإذا لقيهم عرف أنهم الحجّة وأن لهم الطاعة المفترضة.

وقلت للناس: تعلمون أن رسول الله (ص) كان هو الحجّة من الله على خلقه؟ قالوا: بلى. قلت: فحين مضى رسول الله (ص) من كان الحجّة على خلقه؟ فقالوا: القرآن. فنضرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجئ والقدرى والزنديق الذي لا يؤمن به، حتى يغلب الرجال بخصومته. فعرفت أن القرآن لا يكون حجّة إلا بقيم - أي من يقوم بأمر القرآن ويعرف ظاهره وباطنه ومجمله ومؤوله ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه بوحي إلهي أو بإلهام ربّاني أو بتعليم نبوي - فما قال فيه من شيء كان حقاً، فقلت لهم: من قيم القرآن؟ فقالوا: ابن مسعود قد كان يعلم، وفلان يعلم، وفلان يعلم. قلت: كلّهم؟ قالوا: لا. فلم أجد أحداً يقال أنه يعرف ذلك كلّهم إلا علياً (ع) ، وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري... وقال هذا: لا أدري... قال هذا - أي علي بن أبي طالب - أنا أدري، فأشهد أن علياً (ع) كان قيم القرآن، وكانت طاعته مفترضة وكان الحجّة على الناس بعد رسول الله (ص) ، وأن ما قال في القرآن فهو حق. فقال: رحمك الله.

فيتين من خلال التأمل في حديث الثقلين الملازمة التامة بين القرآن وأهل البيت وعدم الإنفكاك، وأنه كل ما يتصف به القرآن من صفات كمالية فهي بذاتها في أهل البيت لأن ذلك مقتضى عدم الافتراق. فأهل البيت (ع) نفس القرآن في مقام التطبيق

ص: ١٦

والتأويل (وهم القرآن الناطق، والتقل الصادق، لأن القرآن لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان) [٥]. قال أمير المؤمنين (ع):
(هذا كتاب الله الصامت وأنا كتاب الله الناطق) [٦] والله در القائل:

ساوا كتاب الله إلا أنه هو صامت وهم الكتاب الناطق

فقد بذل أمير المؤمنين كل ما بوسعه من أجل النبي والقرآن في عصر التنزيل، وصبر على الظلم بشتى أنواعه حفاظا على القرآن والإسلام في عصر الخلفاء، ثم جاهد العدوان والاضطهاد من أجل التأويل والتطبيق الصحيحين، كما صرح النبي بذلك في حديثه المشهور: (إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله وهو على بن أبي طالب) [٧]. وقال أيضا: (أيها الناس، إنى فرطكم وأنتم واردون على الحوض، ألا وإنى سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني، وسألت ربي ذلك فأعطانيه، ألا وإنى قد تركتهما فيكم: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فلا تسبقوهم فتفرقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم، أيها الناس، لا ألفينكم بعدى ترجعون كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كمجر السيل الجرار، ألا وإن على بن أبي طالب أخى ووصيى، يقاتل بعدى على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله) [٨].

وقد أمر النبي جميع الناس بأن يجروا العترة في إجلالها وإعظامها والالتقياد لها والطاعة لأوامرها مجرى القرآن الكريم الذى يدل على أهل البيت بآياته وهم أيضا يدلون بدورهم على القرآن ببيانهم وتفسيرهم وتأويلهم وتطبيقهم له والمحافظة عليه من الضياع والتحريف متنا وتأويلا.

وخلاصة الكلام أن للقرآن ظاهر وباطن؛ ظاهره دعوة عامة لكل أصناف الناس، يشترك فيها العالم والجاهل، وهو بذلك شرعة لكل وارد، ينال كل منه حسب استيعابه ولياقته الناشئة من طلبه وتوسله.

أما باطن القرآن فيمثل المرتبة العليا من المعارف الإلهية والعلوم الربانية التى اختص بها نبي الهدى (ص) والخواص من أهل بيته الذين توارثوه عنه صالح بعد صالح وصادق بعد صادق، وما ضاع عنهم شيء ولم تسقط عنهم ألف ولا واو ولا يختلف آخرهم عن أولهم، فقد نزل الوحي في بيتهم، وأهل البيت أدري وأعرف بما في البيت من غيرهم. ومن ادعى علم القرآن جميعه بكل شعبه وأقسامه وبطونه، فإنما هو مفتر كاذب أو جاهل خابط، وكلا الأمرين يسقطان كونه عالم بالقرآن أصلا.

بالإضافة إلى ذلك، فإن من علم ظاهر القرآن دون باطنه، فذلك لا يؤهله لمقام الفقاهة والقضاء والإفتاء.. لأنه قد يكون ملما

ببعض الأصول العامة من المسائل الدينية، لكنه يفتقر العلم بتقيد تلك الأمور وتخصيصها ولطائف مفرداتها التي يجب الرجوع فيها إلى إمام معصوم. وإلا، فلن يكون الشخص واجدا لظرائف العلوم الإلهية وتفصيلها في مختلف الأبواب الفقهية والأصولية فكيف بالمعارف الإلهية كالمبدأ والمعاد وصفات الله وعلمه وقدرته وغيرها من المسائل التي هي في غاية الدقة والحساسية وهي

ص: ١٧

لذلك محل اختلاف وخط عميقين. وقد أدى هذا الاختلاف إلى بروز مدارس ومذاهب شتى، تدعوا كل واحدة منها إلى انضمام الناس إليها على أنها تمثل الدين الإسلامي الحنيف رغم تضادها مع بعضها البعض.

فلا بد من الرجوع إلى الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته (ع) - قرناء القرآن - والتعلم منهم لأنهم الراسخون في العلم والنقل الموازي للقرآن الذين اختصوا بمعرفة بطونه كلها لعدم افتراقهم منه أبدا.

[١]- سورة الطلاق: الآيتان ١٠ - ١١.

[٢]- سورة الجمعة: الآية ٢٠.

[٣]- سورة النحل: الآية ٤٤.

[٤]- سورة الرعد: الآية ٤٣.

[٥]- الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي: ص ١٥٠.

[٦]- وسائل الشيعة: ج ١٨ ص ٢٠.

[٧]- مسند أحمد بن حنبل - دار إحياء التراث العربي - ج ٣ ص ٣٣ - ٨٢، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٢٣.

[٨]- وردت قطع من الحديث في الطبقات الكبرى: ج ٢ ص ١٩٤، تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ١١١ - ١١٢، صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٣، مسند أبي يعلى: ج ٢ ص ٢٩٧ - ٣٠٣، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٠٩، مصباح الأنوار: ص ٢٨٥؛ ونقله العلامة المجلسي في البحار: ج ٢٢ ص ٤٦٥ ح ١٩.

تنبيه حول حقيقة الثقلين و اتحادهما

ص: ١٨

ومن جهة أخرى، فإن القرآن والعترة أساساً، هما جزءان من عنصر واحد وحقيقة واحدة بسيطة مجردة - إن صحّ التعبير - وهو العلم الإلهي المودع فيهما، فلا يمكن التفكيك بينهما لأنهما في الحقيقة شيء واحد.

ومما يدل على هذا المعنى، ما ورد ضمن حديث الثقلين على (أنهما لن يفترقا). فليست حقيقة القرآن الكريم ألفاظه أو حروفه أو ما شاكل ذلك، بل حقيقته العلم الذي تشير ألفاظه إليه، فالألفاظ والحروف والكلمات والجمل وسائل وأسباب إلى حقيقة العلم والنور الإلهي، ويمكن التعبير عنها بإشارات ودلالات من أجل التنبيه والتذكرة إلى الحقائق، كما أن العين وسيلة إلى الرؤية وليست العين هي الرؤية والنظر بحد ذاتها. ولا يخفى أن كون الألفاظ والحروف وسيلة إلى تحصيل العلم الإلهي يجعلها مقدسة ولا يجوز مسّ رسمها إلاّ بطهور.

ولذلك فإننا نجد من يهتدى إلى النور الإلهي عبر الاستماع إلى كلمة أو آية فيلقى الله نور العلم والإيمان في قلبه فيؤمن بالله الواحد الأحد، بينما نرى أشخاصاً أذمنوا قراءة القرآن وأجادوا تلاوته بل حفظوه عن ظهر القلب، لكنهم في نفس الوقت أبعد ما يكونون عن علومه وحقيقته معانيه. فالألفاظ ليست غاية بل هي سبب يمكن أن يوصل إلى الغاية ويمكن أن لا يوصل حسب طلب الفرد وإلحاحه وتسليمه وتقواه وخشوعه وتضرّعه لدى ساحة القدس الإلهية. فحقيقة الكتاب هي نور العلم الذي ينيّر قلوب المؤمنين..

وكذلك فإن حقيقة العترة الطاهرة التي تجعلهم عدلاً للقرآن وجزءاً لا يتجزأ منه، هو العلم الذي صارت أرواحهم الزكيّة أوعية وحملة له واصطفاهم الله به بفضلهم ومنه.

ومما يدل على اتحادهما، ورود لفظ (لن يتفرقا) بدلاً من (لن يفترقا) في بعض نسخ الحديث [٨].

فالتفرق يوحي بتفكك الشيء الواحد وتلاشيه على نفسه، بينما الافتراق يعني انفصال شيء عن شيء آخر، كافتراق الزوج عن زوجته. ولكننا إذا أردنا أن نتحدث عن العائلة - مثلاً - وهي كيان واحد، لزم أن نقول "تفرقت العائلة". فقولنا "افترق القوم" غير بليغ لعدم وجود شيء يفترق القوم عنه. والصحيح أن يقال "تفرق القوم" أي انحلّ جمع القوم الواحد فصاروا شتات متفرّقين.

أما كون الضمير المتصل بلفظ "التفرّق" ضمير تنبيهية، أمر موجّه لكون الثقلين شيئان في الظاهر؛ فالقرآن شيء والعترة شيء، إلاّ أنهما صارا كشيء الواحد الذي لا يمكن تفكيكه لشدة التلازم بينهما.

ولربما دل الحديث الوارد عن رسول الله بطرق كثيرة؛ وهو قوله: (على مع القرآن والقرآن مع على لن يفترقا حتى يرثي عليّ الحوض) [٢] على ذات المعنى.. فلوا أولنا الشرط الثاني من الحديث؛ أي كون القرآن مع على (ع) ، بأن أمير المؤمنين كان يحفظ القرآن ويرعاه ويستلهم العلوم منه، ثم توقفنا عند هذا الحدّ، فكيف نؤوّل الشرط الأول منه؟ وماذا يعنى كون أمير المؤمنين فى معية القرآن دون افتراق؟! ويشتد الوله والتحيّر حين الالتفات إلى أن أمير المؤمنين قد توفاه الله وهو ليس بموجود بجسمه وصورته فى ظاهر الأمر! فكيف يكون مع القرآن إذن؟!

ص: ١٩

و لربما يكون الجواب أن حقيقة القرآن موجودة مع الإمام على (ع) ؛ وهى العلم.. وحقيقة الإمام على موجودة مع القرآن؛ وهى العلم أيضا.. وبما أن العلم حقيقة بسيطة لا تتجزأ فالقرآن وعلى لا يتجزأان أبداً.

و هذا يفسر قوله فى بعض نسخ الحديث حين يشير إلى القرآن و العترة بقوله: " .. أحدهما أكبر من الآخر؛ كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض و عترتى.." فسبب كون القرآن أكبر من العترة هو لأنه كلام الله و هو ليس بأعظم منهم بمجرد كلماته و حروفه التى لا تختلف عن الحروف الأخرى، فهو مركب من كلمات العربية المتداولة التى رسمت على أوراق و وضعت بين دفتين.. و هذا ليس ما نذهب إليه حين نذكر القرآن، بل حقيقة القرآن هى تلك الحقيقة النورانية التى لا تُعقل و لا نستطيع الإحاطة بها لأنها أجل و أسمى من أن تتألفها أوهاج العباد، فهى فوق المعلوماتية و المعقولية و هى العلم الإلهى الذى تجلى فى هذا الكتاب السماوى المقدّس، و إنما صار أهل البيت عدولاً للقرآن لأنهم حملة لهذا العلم و خزاناً و معدناً له.. و لذلك يبقى هو الأساس فى عظمتهم فهو أكبر منهم.. ذلك لأن العالم إنما يصير عالماً بالعلم و هو السبب فى تفوق العالم على الجاهل، فالعلم أعظم من العالم..

وهذا دليل على عصمة أهل البيت أيضا. فمن كان علمه علم القرآن و علم القرآن علمه، كيف يجوز له أن يرتكب ذنبا؟! و من عرف الله حق معرفته كيف لا يخشى الله حق خشيته؟! قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فأهل البيت (ع) - وأيم الله - هم العلماء.

والبحت فيما يتعلق بعلم أهل بيت العصمة و الطهارة أ مفصّل و عميق، نتركه لعلو شأنه عن أن تتألفه أوهاجنا القاصرة و الله نسأل فى أن يلهمنا العلم و اليقين، عليه نتوكل و به نستعين.

ص: ٢٠

[١]- كما في الحديث الوارد في مسند أحمد، كتاب مسند الأنصار، باب حديث زيد بن ثابت، ص ١٨٩ ط دار صادر بيروت، رقم: ٢٠٦٦٧ وكذلك ما ورد في سنن الترمذى، كتاب المناقب عن الرسول، باب مناقب أهل بيت النبي، ص ٢٦٢ ط دار إحياء التراث العربى - بيروت، رقم: ٣٧١٨ وغيرها من كتب الشيعة والسنة.

[٢]- المعجم الصغير للطبراني - دار إحياء التراث العربى - ص ٣٠٣، والمستدرک على الصحيحين - دار المعرفة، بيروت - ج ٣ ص ١٢٤، ومجمع الزوائد - دار الكتاب العربى، بيروت ط ١٤٠٢: ج ٩ ص ١٣٤، وتاريخ الخلفاء للسيوطى: ص ١٩٣ وغيرها.

الدلالة الرابعة:

كما أشرنا سابقاً، يمكن الإستدلال بهذا الحديث الشريف على عصمة أهل البيت من الزلّ، وذلك لإخبار النبي بأنهم لن يفترقوا عن القرآن، وأنّ في التمسكّ بهم مأمّن من الانحراف والضلالة.. فلم يكن بدّ إلاّ أن يكونوا معصومين عن الخطأ والمعصية والغىّ والسهو.. فلو لم يكونوا كذلك، وكانت لهم أخطاء ومعاص، لافترقوا عن القرآن في ذلك الموضع، والقرآن هو الكتاب السماوى الذى (لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ولا يجتمع القرآن مع المعاصى، وقول النبي (لن يفترقا..) يفيد الأبدية واستحالة افتراق العترة من القرآن والقرآن من العترة.. بالإضافة إلى ذلك، لو لم تكن العترة معصومة لما كان في اتباعها نجاة من الضلالة مطلقاً ولما كان الشخص مصوناً من الانحراف والخطأ كما أن عدلها (أى القرآن) معصوم، وذلك حتى لا تفترق عن القرآن ولكى يضمن المرء المصونيّة من الضلالة في التمسكّ بهما.

ومن ثمّ فالعصمة ضرورية لكلّ من يأتّم الناس به، واقتران العترة بالكتاب الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وعدم افتراقهم منه أبداً دال على أنّهم لا يخالفونه قولاً ولا فعلاً، ولو صدر منهم أى مخالفة للكتاب سواء كانت عمداً أو سهواً فهى حاكمة على افتراقهم عن القرآن. والحديث صريح فى عدم افتراقهما حتى يوم القيامة، وإلاّ لكان تكذيباً لرسول الله (ص) وحاشاه أن يكذب أو يهجر.

ولو لم تكن العترة معصومة لجاز أن يصدر منهم الظلم، وفى المتعارف عند الناس متى استخلف ملك رجلاً ظالماً استدلّ بظلم خليفته على ظلم مستخلفه (أى الملك) وإذا كان عادلاً استدلّ بعدله على عدل مستخلفه فلو كان الملك عادلاً لما استخلف

ظالماً ليأخذ مكانه ويحكم فى الناس ويقضى بينهم، فثبت أن خلافة الله توجب العصمة ولا يكون الخليفة إلاّ معصوماً، إذ لو أخطأ الخليفة فأجرى حكماً ظالماً لاستقبح العقل كون خليفة رسول الله (وبالنتيجة خليفة الله) ظالماً، وليس الله بظلام للعبيد.

وهذا إلى غير ما هنالك من أدلة عقلية ونقلية على عصمة أهل البيت (ع) والتي من أبرزها آية التطهير وهى قوله تعالى: (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً) [١]. وهذه الآية من الآيات التى لا يختلف فى من نزلت بحقه اثنان، وهى من أوضح البراهين التى تدل على عصمة أهل البيت من كل رجس وذنس وضلالة وانحراف ومن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحتوى هذا الآية على تأكيدات معنوية ولفظية عديدة، ودلالاتها على عصمة أهل البيت واضحة وذلك لاستحالة تخلف مراد الله تعالى وهو جبار السماوات والأرض الذى (أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)، كما أن تأكيد الطهارة يفيد العصمة لا محالة.

وقد أجمع المحدثون والمفسرون على أن هذه الآية إنّما نزلت بحقّ على وفاطمة والحسن والحسين (ع). واقرب الأدلة وأوضحها فيما جاء فى تفسير هذه الآية من أحاديث، عرفت عند أصحاب الحديث بحديث (الكساء) ولا تقل صحته وتواتره عن حديث الثقلين وقد ورد فى مواقع شتى، وأحاديث أخرى عرفت بأحاديث التسليم [٢]، أن رسول الله (ص) كان يمرّ بباب فاطمة u ستة أشهر كلّما خرج لصلاة الفجر يقول: (الصلاة يا أهل البيت)، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً) (وغيرها من الروايات المشابهة التى تواترت لفضا ومعنا ومضمونا لدى الفريقين).

روى الحاكم فى كتابه "المستدرک على الصحيحين فى الحديث": عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أنّه قال: لما نظر رسول الله (ص) إلى الرحمة هابطة قال: (ادعوا لى، ادعوا لى) فقالت صفيّة: من يا رسول الله؟ قال: أهل بيتى على وفاطمة والحسن والحسين فجىء بهم فألقى عليهم النبى (ص) كساءه، ثمّ رفع يديه ثمّ قال: اللهم هؤلاء آلى فصلّ على محمد وآل محمد. وأنزل الله u: (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً) [٣].

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

وروى الحاكم مثله عن أم سلمة قالت: فى بيتى نزلت (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) فأرسل رسول الله إلى على وفاطمة والحسن والحسين، فقال هؤلاء أهل بيتى [٤].

ثم قال الحاكم: هذا صحيح على شرط البخارى، ورواه فى موضع آخر عن وائلة وقال: صحيح على شرطيهما [٥].

[١] - سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

[٢]- منها ما ورد فى صحيح الترمذى ومسند أحمد ومسند الطيالسى ومستدرک الحاکم على الصحیحين وأسد الغابة وتفسیر الطبرى وابن كثير والسيوطى وغيرهم.

[٣]- مستدرک الحاکم: ج ٣ ص ١٩٧ - ١٩٨.

[٤]- مستدرک الحاکم: ج ٣ ص ١٩٧ - ١٩٨.

[٥]- انظر باب "من هم أهل البيت" للبحث فى هوية أهل البيت؛ وقد جاء هذا الخبر فى روايات متعدّدة فى الصحاح وكتب الأحاديث والتفسیر وهو مت الأخبار الصحيحة المتواترة ولم يضعفه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين؛ وفيما يلى نذكر بعض مصادر هذا الحديث:

أ- البيهقى فى السنن الكبرى، باب بيان أهل بيته والذين هم آله.

ب - تفسير الطبرى: ج ٢٢ ص ٥.

ج - تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٤٨٥.

د- تفسير الدر المنثور: ج ٥ ص ١٩٨ - ١٩٩.

هـ - صحيح الترمذى: باب فضائل فاطمة.

و- مسند أحمد: ج ٦ ص ٢٩٢ - ٣٢٣.

ز- صحيح مسلم: باب فضائل أهل البيت؛ وغيرها.

الدلالة الخامسة:

يدلّ هذا الحديث على أن أهل البيت (ع) هم خلفاء الله ورسوله بعد النبى (ص) ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالنحو التالى: جعل النبى (ص) فى كلامه الشريف عترته وأهل بيته قرائن القرآن وفى محلّ وجوب التمسكّ بهم لرفع ضلالة الأمة والشك والريبة، وجعل هداية الأمة وعدم انحرافها فرعا لتمسكها بهذين الأصلين.

ص: ٢٣

فالولاية التي جعلت شرطا لعدم الضلالة والانحراف، ومن ثمّ دخول الجنة أو النار - والعياذ بالله من النار - لا بدّ أن تكون ولاية في طول ولاية الله المطلقة وتلك هي الولاية ذاتها التي تمنح الرسول ولاية على المؤمنين بل الخلق أجمعين وذلك قوله في حديث الغدير (ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟). ولذلك كان الناس يخاطبون النبي بقولهم (بأبي أنت وأمي). فقد قال عز وجل: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) [١]، فهذا يعنى الولاية التكوينية والتشريعية المطلقة التي أعطاها الله لرسوله تكريما وإعظاما له.

قال الله تعالى: (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فقد فوض الله أمر الدين إلى نبيه وهذه الولاية هي التي أكد عليها الله تعالى في قوله تعالى: (أطيعوا الله ورسوله وأولى الأمر منكم) فاستمر هذه الولاية إلى أهل البيت (ع) عبر النصوص الواردة في كتاب الله وأحاديث رسوله كحديث الغدير وحديث الثقلين، فهم ولاية الأمر الذين أمر الله بطاعتهم كما أمر بطاعته وطاعة نبيه، وكما أنّ طاعة النبي هي بحدّ ذاتها طاعة الله، وهكذا فطاعة عترته طاعة له والله، وهذا كلّ في طول طاعة الباري عز وجل، لا في عرض طاعته حتى يقال أن هذا شرك، فهم (أى الرسول والعترّة الطاهرة) لا يقولون إلّا ما قال الله ولا يخالفون أمره. قال الله تعالى: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل* لأخذنا منه باليمين* ثم لقطعنا منه الوتين) [٢] ولا يأمرون إلّا بما أمر به الله، ولذلك فإن اتباعهم امتثالا لأمر الله هو عين التوحيد بالله عز وجل، والعكس هو الشرك بذاته، فامتناع إبليس من السجود لآدم جعله كافرا مستكبرا ومشركا رأيه الباطل مع الله، وكان السجود لآدم عين التوحيد وذلك لأنّه كان طاعة لأمر الله عز وجل، وكذا حين أمرنا الله أن نطيع نبيه كما في قوله تعالى: (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، أو قوله عز وجل: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)، أو قوله: (إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) [٣] أو في الكثير من الآيات الأخرى، وجب علينا طاعة النبي في كلّ ما أتى به وهذا ممّا لا يشك فيه أحد من المسلمين.

وعلى هذا فأمر النبي (ص) باتباع عترته وأهل بيته لم يكن إلّا من الله تبارك وتعالى، رحمة منه لعباده وحياسة لهم إلى جنته. قال تعالى: (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) أفلا ينبغي أن نطيع الرسول في إتباع القرآن والعترّة لنكون بذلك قد أطعنا الله وتجنّبنا النار التي سجّرها جبارها لغضبه وأعدّت للكافرين؟!

لقد ورد في بعض نصوص حديث الثقلين، لفض (إنّي تارك فيكم خليفتين، كتاب الله وأهل بيتي..). ولأنّ العترّة الطاهرة ليست بحاجة إلى أحد ماداموا لا يفترقون عن القرآن والناس بحاجة إليهم لتجنب الضلالة (كما مر شرحه) فالعقل يحكم بوجوب كون أهل البيت أئمة وقدوة للناس. كما قال أحدهم حول أمير المؤمنين على بن أبي طالب (ع): (استغنائه عن الكلّ، واحتياج الكلّ إليه دليل على أنه إمام الكل) [٤] وقول رسول الله (ص): (إنّي تارك فيكم خليفتين) نص صريح بأنّ النبي خلفهم ووصى الأئمة باتباعهم والأخذ عنهم، وأكد ذلك قوله: (فانظروا كيف تخلفوني فيهما) [٥]، فلم يبق هناك مجال للشكّ في كونهم خلفاء رسول الله دون غيرهم وأنهم أئمة المسلمين بعد رسول الله.

ولكن بالرغم من توصية النبي في أهل بيته، فقد آذوهم وظلموهم وشرّدوهم وأفرغوا أحقاد نفوسهم وضغائن قلوبهم في سبيل إيذائهم.. فلو أمر النبي بتعذيب أهل بيته لما استطاعوا أن يفعلوا أكثر مما فعلوه! هذا وقد أخبر النبي بذلك في أحاديث عديدة، منها قوله: سيلقى أهل بيتي من بعدى تطريدا وتشريدا [٦]. فلم يبق من أهل بيته أحد إلّا وقد قتل.. فهذه الصديقة الشهيدة فاطمة

الزهراء عز و جل تعصر بين الباب والحائط حتى أسقطت جنينها وماتت ظلماً وعدواناً وقد أخفى قبرها بوصية منها، وكذلك أمير المؤمنين فقد قتل بسيف أشقى الآخرين وابن اليهودية المارق الخارجي عبد الرحمن ابن ملجم وكذلك جميع أئمة أهل البيت (ع) حتى قالوا: (ما منا إلا مسموم أو مقتول)، ناهيك عن أصحابهم وشيعتهم الذين لا قوا ما لا قوا في سبيل محبتهم التي هي فرض من الله عز و جل [٧].

أفلم يسمعوا قول رسول الله (ص): (أذكركم الله في أهل بيتي) [٨]، وقوله: (الويل لظالمى أهل بيتي، عذابهم مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار) [٩]، وقوله: (من آذانى فى أهل بيتى فقد آذى الله) [١٠]؟!!

فلا حول ولا قوة إلا بالله وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

ولأن أهل البيت (ع) هم وحدهم مراجع جميع أفراد الأمة إلى يوم القيامة (لأن الورد على الحوض لا يكون إلا فى يوم القيامة) فيجب أن تكون كل حاجات الأمة فى حوزتهم وهذه العلوم مختصة بهم لعدم دخول أحد من الناس ضمن تعريف (أهل بيت النبى وعترته) فالكل محتاج إليهم وهم ليسوا بحاجة إلى أحد ولذلك هم المختصون لقيادة الأمة وللإمامة على جميع الخلق، لأن المحتاج إلى غيره والجاهل لا يكون إماماً للأمة، والجاهل لن يكون مقدماً على العالم حتى بعد رفع الجهل بالرجوع إلى العالم والتعلم لديه.

فكيف لأحد أن يدعى أنه الإمام والخليفة وأنه محيط بعلوم القرآن كلها وقد اعترف بالجهل، وأقر بأن له شيطاناً يعتريه؟! فهذا أبو بكر بن أبى قحافة يقول: (وليتكم ولست بخيركم، فإن استقممت فأتبعونى، وإن اعوججت فقومونى، فإن لى شيطاناً يعترينى) ويقول أيضاً: (أقبلونى، أقبلونى، فلست بخيركم وعلى فيكم) [١١].

وذكر القاضى بهلول بهجت أفندى الشافعى فى كتاب "المحاكمة": "إن أبا بكر بن أبى قحافة عندما صار خليفة، صعد المنبر بعد بضعة أيام وقال فى جملة ما قال: (أقبلونى، ما أنا بخيركم وعلى فيكم).

أما الخليفة الثانى فقد نقلت عنه قولته الشهيرة: (لولا على لهلك عمر) التى ردّها فى أكثر من سبعين موقف [١٢]، وقوله: (لا أبقانى الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)، وقوله: (كل الناس أفتة من عمر). وغير ذلك من المواقف التى أخطأ فيها فى القضاء والحكم فاستعان بأمر المؤمنين على بن أبى طالب ٧، فكيف له أن يدعى الإمامة والخلافة وهو يقرّ بجهله ودنو مرتبته؟

ولا يقال أن هذا من باب المجاز والتواضع، ففى مثل هذا المقام هنالك احتمالان لا ثالث لهما، إما أن يكون صادقاً فى ما يقول فالعدول عنه إلى من هو أعلم منه أولى لمن أنصف عقله. وإما أن يكون كاذباً، فكيف يجوز اتباع من هو كاذب فى مقالته؟!

أما الخليفة الثالث، فقد نقل مالك فى موطنه: (أن عثمان بن عفان أتى بامرأة قد ولدت فى ستة أشهر فأمر بها أن ترحم فقال له على بن أبى طالب ليس ذلك عليها، إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه: (وحمله وفضاله ثلاثون شهراً) وقال: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) فالحمل يكون ستة أشهر فلا رجم عليها. فبعث عثمان بن عفان فى أثرها فوجدها قد رجمت).

فقد قتلت هذه المرأة ظلماً، وجهلاً بحكم الله الموجود في ظاهر القرآن، فكيف يمكن لعثمان أن يكون إماماً أو خليفة لرسول الله (ص) وهو يجهل أحكام الله ويحكم بغير علم؟! وكيف يمكن له أن يدعى بآته عالم بجميع القرآن وهو يجهل أحكامه؟!!

والعقل يحكم أن الإمام وخليفة رسول الله ينبغي أن يكون عالماً بجميع أحكام الدين وعلوم القرآن وأن يكون هو الأعلم في زمانه لأنّ ترجيح المرجوح على الراجح وتفضيل المفضول على الفاضل قبيح بحكم العقل، والله أعلى وأجل من أن يفعل قبيحا فيقدم الجاهل على العالم، وقد تبين لمن تتبّع الأخبار وجاس خلال الديار أن أهل البيت كانوا ولا زالوا أعلم الناس بعد رسول الله وذلك من خلال المقارنة بين سيرتهم وكلماتهم وأحاديثهم وسيرة سائر الناس وكلامهم وهكذا عرف الله الإمام في كتابه بقوله تعالى: (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون)، فينبغي أن لا يكون الخليفة على الأمة إلا أعلمهم بكتاب الله وسنة نبيه.

[١] - سورة الأحزاب: الآية ٦.

[٢] - سورة الحاقة: الآيات ٤٤ - ٤٦.

[٣] - سورة المائدة: الآية ٥٥؛ وقد أجمع المفسرون والمحدثون على نزول هذه الآية في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ٧ حين تصدق بخاتمه لمحتاج أثناء الركوع. راجع:

أ- الكاشف: ج ١ ص ٦٤٨.

ب - تفسير النيسابوري: ج ٢ ص ٦٠٤.

ج - النور المشتعل من كتاب ما نزل من القرآن في علي ٧، ص ٦١ وتفسير الثعلبي: ص ١٤٤.

د- الطرائف: ص ٤٩، عن الجمع بين الصحاح، جامع الأصول: ج ٩ ص ٤٧٨.

هـ - عمدة ابن بطريق: ص ٥١٦، عن مسند ابن حنبل.

و- مناقب ابن المغازلي: حديث ٣٥٤ - ٣٥٨.

ز- إحقاق الحق: ج ٣ ص ٥٠٥. "بناء المقالة الفاطمية" سيد جمال الدين ابن طاووس: ص ٢٤٩، عن صحيح النسائي.

ص: ٢٦

ح - شواهد التنزيل: ج ١ ص ٢٠٩، كفاية الطالب: ص ٢٢٨ - ٢٢٩، الغدير: ج ٢ ص ٤٧ و ج ٣ ص ١٤١ - ١٤٧.

[٤]- الخليل بن أحمد البصرى المتوفى سنة ١٧٥هـ، واضع علم العروض ومعلم سيبويه.

[٥]- كما فى مسند أحمد وسنن الترمذى.

[٦]- المستدرک للحاکم: ج ٤ ص ٤٦٦ - ٤٨٧، نقلاً عن كتاب "الهجوم على بيت فاطمة".

[٧]- قال تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة فى القربى).

[٨]- سنن الدارمى: ج ٢ ص ٤٣٢.

[٩]- المناقب لابن المغازلى: ص ٦٦ و ٤٠٣ ح ٩٤.

[١٠]- كنز العمال: ج ١٢ ص ١٠٣.

[١١]- ابن أبى الحديد فى شرحه لكلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب: "فيا عجبا! بينا هو يستقبلها فى حياته إذ عقدها

لآخر بعد وفاته" ج ١ ص ٥٨ و ج ٤ ص ١٦٦، وراجع أيضا الإمامة و السياسة لان قتيبة: ج ١ ص ٣١، وكنز العمال: ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٥ و ١٤١.

[١٢]- وهذا قول مشهور و تناقلته كتب الفريقين بشتى الأسانيد، راجع فى ذلك إحقاق الحق: ج ٨ ص ١٨٢ - ١٩٣ و ٢٠٢ و

ج ١٧ ص ٢٤٢ - ٢٤٤.

الدلالة السادسة:

يدلّ هذا الحديث على أن أهل البيت (ع) هم خلفاء الله ورسوله بعد النبى (ص)، ويمكن الاستدلال على

إنّ الإمامة والخلافة الإلهية منحصرة بالعترة الطاهرة، وذلك لقول النبى (ص): (لن يفترقا) أى أنّ القرآن لن يفترق عن أهل البيت وهم أيضا لن يفترقوا عن القرآن أبدا. وهذا يدلّ على أن غير العترة محتاج لهم كما أنه محتاج إلى القرآن، فلا يمكن لأحد آخر أن يكون خليفة وإماما، فلو كان كذلك لم يحتج هذا الشخص - أو الأشخاص - إلى أهل البيت وهذا محال كما مر. بل كان العكس، أى لا يحتاج أهل البيت إلى ذلك الشخص ولو كان ذلك لخبر عنه النبى ولما خصص كلامه بأنّ الثقلين - أى القرآن

ص: ٢٧

والعترة - لن يفترقا وهذا بالإضافة إلى عصمة أهل البيت لعدم افتراقهم من القرآن، يعنى أيضا أن القرآن لا يفترق عنهم فهو بذلك لا يلتحق بأحد آخر بكل جوانبه وما يشتمل من العلوم والمعارف.

روى الشيخ الكليني [١] عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس، وعلى بن محمد بن سهل بن زياد أبى سعيد عن محمد بن عيسى عن يونس، عن ابن مسكان عن أبى بصير قال: سألت أبا عبد الله γ عن قول الله عز و جل: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)، فقال: (نزلت فى على بن أبى طالب والحسن والحسين (ع)).

فقلت: إن الناس يقولون فما باله لم يسمّ عليّا وأهل بيته فى كتاب الله عز و جل؟

فقال: قولوا لهم إن رسول الله نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله لهم ثلاثا ولا أربعا، حتى كان رسول الله هو الذى فسّر ذلك، ونزلت الزكاة ولم يسمّ لهم من كل أربعين درهما درهم، حتى كان رسول الله هو الذى فسّر لهم ذلك، ونزل الحج فلم يقل لهم طوفوا أسبوعا حتى كان رسول الله هو الذى فسّر لهم ذلك، ونزلت: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) [٢].

ونزلت فى على والحسن والحسين فقال رسول الله وأهل بيته فإني سألت الله أن لا يفرّق بينهما حتى يوردهما علىّ الحوض فأعطاني ذلك، وقال: لا تعلموهم فهم أعلم منكم، وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم باب ضلالة. فلو سكت رسول الله فلم يبين من أهل بيته لادعائها آل فلان وآل فلان، لكنّ الله أنزل فى كتابة تصديقا لنبيه: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا) [٣]. فكان على والحسن والحسين وفاطمة فأدخلهم رسول الله تحت الكساء فى بيت أم سلمة ثمّ قال: اللهم إن لكلّ نبيّ أهلا وتقلا وهؤلاء أهلى وتقلّى. فقالت أم سلمة: ألسنت من أهلك؟ قال: إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهلى وتقلّى، فلما قبض رسول الله (ص) كان على أولى بالناس، لكنّ ما بلغ فيه رسول الله وإقامته للناس وأخذه بيده [٤]، فلما مضى على لم يكن يستطيع على - ولم يكن ليفعل - أن يدخل محمد بن على ولا العباس بن على ولا واحدا من ولده.. فلما مضى على، كان الحسن أولى بها لكبره فلما توفى لم يستطيع أن يدخل ولده ولم يكن ليفعل ذلك، والله عز و جل يقول: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) [٥]. فيجعلها فى ولده.. فلما صارت إلى الحسين لم يكن أحد من أهل البيت يستطيع أن يدعى عليه، لو أراد أن يصرفا الأمر عنه، ولم يكونا ليفعلاه، ثمّ صارت حين أفضت إلى الحسين فجرى تأويل هذه الآية (أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) ثم صارت من بعد الحسين لعلىّ بن الحسين. ثم قال: الرجس هو الشك، والله لا نشك فى ربّنا أبدا. الخبر.

ولو لم يستخلف رسول الله (ص) فى علمه أحدا يحكم بحكمه، ولا يخالف حكم الله ورسوله ولا يكون فى علمه اختلاف، لضيع من فى أصلاب الرجال ممن يكون بعده. ولا يشك أحد أن النبى كان أحرص الناس على قومه من الضياع [٦].

وهل يعقل أن يعين أبو بكر عمر ليخلفه فى الناس حرصا منه على مستقبل الأمة، ويترك النبى أمته التى لطال ما تحمل الأذى فى سبيل هدايتها من دون إمام ووصى ليرجعوا إليه؟ وما هو واضح من كلمة "ال خليفة" إنه معين من قبل النبى نفسه، لا من انتخبه بعض الحاضرين فى سقيفة بنى ساعدة..! فلو اجتمع الجن والإنس وعينوا أحدهم ليخلف النبى، لما صار ذلك الشخص خليفة له من دون تعيين ونص من جانب النبى شخصا. فكيف يمكن أن يختار الناس أحدهم ليكون خليفة ووصيا لمن مضى

ورحل ومن دون أن يمضى له بالوصاية والخلافة؟! وكما أنه لم يكن للناس الحق في اختيار النبي، فليس لهم أن يختاروا وصيه وخليفته، وينبغي أن يكون الخليفة منصوصا عليه كما هو حال أهل البيت (ع) أجمعين.

وقد كانت نتيجة إنكار الوصاية والإمامة، ما شوهد من الاختلاف والتشتت في الأمة وتفسير القرآن بالرأى واتخاذ القياس أصلا في استنباط الأحكام الشرعية.. وبما أن المسلمين كانوا يتلقون الأحكام والقوانين والعبادات التي تنظم شؤون المجتمع كأحكام الصلاة والصوم والجهاد والحج والمواريث والقضاء وغيرها من شخص الرسول، فهو مبلغ الدين والداعى إلى سبيل الهدى والناطق بلسان الوحي. ولكن بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى وحدث أمور ومواقف مستجدة تحتاج إلى بيان رأى الإسلام فيها، وتحديد الحكم الشرعى الذى ينظمها، شاع الخبط والشماس والتلون والاعتراض والجدل والانحراف بين المختلف طبقات المجتمع، وذلك لأنهم لم يجدوا آية محكمة أو سنة صريحة فى بيان حكم الكثير من المسائل لانقطاع مصدر التشريع عندهم مع وفاة النبي، ففاسوا برأيهم واختلفوا أشد الاختلاف، وذلك لأنهم لم يتمسكوا بالعروة الوثقى وبحبل الله المتين وصرطه المستقيم الذى أمروا بالاعتصام به.

فأحدثوا عشرات الفرق والمذاهب الضالة واختلفوا فى كل شىء حتى فى صفات الله تعالى وفى أسمائه العليا، ناهيك عن فروع الدين وتفصيله.. فقال جمهور منهم بالتجسيم فعبدوا إلهها خلقوه وصنعه بأنفسهم فى أوهامهم، وذهبت طائفة منهم إلى وحدة الوجود فعبدوا إلهها ذاب فى كل شىء وذاب فيه كل شىء حتى رأوا أنفسهم جزءا منه، وكذلك اختلفوا فى عصمة الأنبياء الذين هم حجج الله على الخلق ونسبوا لهم المعصية وأنزلوهم إلى أرذل الخلق [أنظر الحاشية أدناه للمزيد من الإطلاع]. واختلفوا فى جل الأصول والفروع والأحكام والسنن. وذلك لأن النبي (ص) لم يحكم بينهم فى كل صغيرة وكبيرة، ولم يبين لهم إلا ما ابتلوا به واختلفوا فيه وإنما أرجعهم إلى من يهديهم سواء السبيل، ذلك لأن العمل بالرأى والقياس موجب للاشتباه والالتباس لأنهما لا يفيدان اليقين أبدا.

قال تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم). "فلما خولف رسول الله (ص) ونبذ قوله وعصى أمره فيهم واستبدوا بالأمر دونهم، وجحدوا حقهم، ومنعوا تراثهم، ووقع التماهى عليهم بغيا وحسدا وظلما وعدوانا حق على المخالفين أمره والعاصين ذريته وعلى التابعين لهم والراضين بفعلهم ما توعدهم الله من الفتنة والعذاب الأليم، فعجل لهم الفتنة فى الدين بالعمى عن سواء السبيل والاختلاف فى الأحكام والأهواء، والتشتت" [8].

فبالرغم من اشتراكهم فى كلمة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ولكنهم على أشد اختلاف فى مصاديقها وتفصيلها، كاختلافهم فى ذات الله والتوحيد [9] والعدل والمعاد والبعث والنبوة وعصمة الأنبياء والرسول، واختلفوا فى أصول الدين وفروعه حتى تحقق خبر رسول الله: (ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا فرقة واحدة) [10] فيجب أن يبحث كل عن الفرقة الناجية التى تمسكت بالدين الإسلامى المحمدي الأصيل ويجتهد فى البحث والتنقيب لكى لا يغدوا من الفرق الضالة الأخرى، والله المستعان.

وقد أبى الله عز و جل بعد رسول الله (ص) أن يترك العباد ولا حجة عليهم، وأبى الله عزّ ذكره أن يحدث في خلقه شيئاً من الحدود والأحكام والمسائل الشرعية المستجدة وليس تفسيرها عند إمام محدث مؤيد من الله يخلفه في الأرض لكي لا تخل الأرض من حجة.

ولو قيل أن الله عز و جل أقام القرآن والسنة النبوية الشريفة للناس حجة ودليلاً كي لا يتشتتوا ويختلفوا بعد النبي (ص)، فلم اختلفت الأمة وكفر المسلمون بعضهم بعضاً ولا زالت الأمة تمخر في بحور من الدماء، منذ يوم كارثة السقيفة المشثوم إلى يومنا هذا، ثم إلى يوم يأتي الله بالفرج على يد ولي العصر وصاحب الزمان وخليفة الرحمن الحجة بن الحسن، مهدي هذه الأمة وطاووس أهل الجنة ومنقذ البشرية سلام الله عليه وعلى آبائه المعصومين الغرّ الميامين.

وقد آل الأمر ببعض الجهلة المتعجرفين حتى اعتبروا الشيعة كفّاراً وزنادقة واتهموهم بأبشع التهم حتى قرونهم باليهود والمجوس، وذلك لحبهم أهل بيت النبوة ليس إلّا؛ فهل هم خارجون عن دائرة الإسلام المحرم للدماء والأعراض والأموال بكتاب الله وسنة نبيه؟ وهل اقترفوا إثماً لا يغتفر، غير ولايتهم لإمام حث النبي أمته على اتباعه وولائه لما نزل في كتاب الله من ولايته؟! ولايته؟!

قال الإمام الشافعي:

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي [١١]

[١] - الكافي: ج ١ ص ٢٨٦.

[٢] - سورة النساء: الآية ٥٩.

[٣] - سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

[٤] - أى فى يوم الغدير وغيره.

[٥] - سورة الأنفال: الآية ٧٥، سورة الأحزاب: الآية ٦.

[٦] - قال تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).

[٧] - فى صحيح البخارى وغيره من الصحاح (!) أحاديث تنسب إلى النبى الأكرم (ص) أموراً تشتمز منها قلوب عوام المسلمين ناهيك عن النبى الأمين، الذى قال عنه العظيم: (إنك لعلى خلق عظيم)، ومنها أنه كان - والعباذ بالله - مشغفاً بالغناء واللهو كما هو مفاد الأخبار الواردة فى صحيح البخارى: ج ٧ ص ٣٣ و ص ٣٢ و ص ٣٨ (كتاب النكاح) و ج ٥ ص ٤٠، وما فى سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٦١٢. ومنها أيضاً ما ينسب إلى النبى الأكرم (ص) المشاركة فى حفلات الغناء والرقص النسائية كما فى البخارى: ج ٥ ص ١٠٥ (كتاب الفضائل) و ج ٧ ص ٢٠ (كتاب النكاح) ومنها ما اتهمت النبى الأكرم بأنه كان يدعو عائشة لمشاهدة رقص الرجال وطربهم وأنه كان يعينها على ذلك كما أورد ذلك البخارى فى صحيحه: ج ١ ص ١٢٣ (كتاب الصلاة) و ج ٧ ص ٤٨ (كتاب النكاح)، و ج ٢٢ ص ٢٠ (كتاب العيدين)، كما ذكره مسلم أيضاً فى: ج ٢ ص ٦٠٩ (كتاب صلاة العيدين). وقد آلت وقاحة القوم إلى نسبة أمور كالتبول من قيام إلى نبى الهدى كما فى صحيح البخارى: ج ١ ص ٦٦ و ج ٣ ص ١٧٧ كما رواه مسلم أيضاً فى صحيحه: ج ١ ص ٥٤٤ (كتاب فضائل القرآن)، ومفاد هذه الأخبار هو: (أن رسول الله قام كما يقوم أحدكم فبال قائماً!) ومن تمعن فى طبيعة هذه الروايات المزيفة والمفتراة لعلم أنها جاءت لعدة أسباب منها تبرير الفساد الخلقى فى البلاط الخليفة الذى شاعت فضائحه وعمّت سؤئته. المصادر نقلاً عن كتاب "أضواء على الصحيحين" للشيخ محمد صادق النجمى.

[٨] - محمد بن إبراهيم النعمانى (كتاب الغيبة) ص ٥٥.

[٩] - كتشبيبه تعالى بخلقه ونسبة الرؤية له فى يوم القيامة وفى المنام؛ راجع صحيح البخارى: ج ١ ص ١٤٥ (كتاب الصلاة) وغيره وكذلك صحيح مسلم: ج ١ ص ٤٣٩، سنن الترمذى: ج ٥ ص ٣٤٣ (كتاب تفسير القرآن). وقد روى السيوطى فى "اللتالى المصنوعة" صلاة يصلها الرجل فىرى الله فى المنام! (المصدر).

[١٠] - مستدرک الحاكم: ج ١ ص ١٢٨، سنن أبى داود: ج ٤ ص ١٩٨، سنن ابن ماجه: (باب افتراق الأمم) ج ٢ ص ١٣٢١.

[١١] - عن كتاب (لماذا اخترت مذهب الشيعة) للفاضى الأنطاكى قال: أخرجه فى الكنى والألقاب: ج ٢ ص ٣٤٩ عن الفصول المهمة.

الدلالة السابعة:

إنَّ طريق الهداية والسعادة الأبدية منحصر بالتمسك بالعترة الطاهرة بدلالة قول النبى (ص): (ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا..)، فالهداية منحصرة بهذين الثقيلين، ولن تكون الأمة فى مأمن من الضلالة والضياع إلا بالتشبث بالقرآن والعترة.

فبعد أن ثبت أن السعادة تكمن فى اتباع القرآن، وأن علم القرآن موجود لدى العترة الطاهرة وأنهما لن يفترقا أبدا، أصبح من الضروري أن نتمسك بأهل البيت (ع) من أجل نيل السعادة وتجنب الشقاء. فلو وجدت السعادة عند غير العترة لافترق القرآن عنهم والتحق بغيرهم وهذا باطل.

فإمامة أهل البيت يدلّ عليها هذا الحديث بكلّ وضوح ويفيد وجوب اتباعهم وعدم مخالفتهم والأخذ عنهم فى جميع الأمور وعلى رأسها المعتقدات والأحكام وغير ذلك من المسائل الدنيوية والأخروية، فلا يمكن لنا أن نخالفهم بقول أو فعل لأنّ أى عمل أو قول أو اعتقاد يخرج عن إطارهم يعتبر خارجا عن إطار القرآن، وهم بذلك مقياس دقيق يعرف به الصراط المستقيم المؤدى إلى النعيم الأبدى أو طريق الضلال المنتهى إلى الشقاء السرمدى، حيث لا يكون الهدى إلا باتباعهم ولا يكون الانحراف إلا بمخالفتهم، ولذلك قال النبى (ص): (ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا).

وكما أن تعاملنا مع القرآن إنّما هو بمنزلة الأخذ بكلّ ما بين دفتيه والعمل بحذافيره والإلتزام بأوامره والانتهاى عن نواهيه لأنّه كلام الله المنزل، فكذلك ينبغى أن نتمسك بالعترة التى هى عدل القرآن كما صرح بذلك حديث الثقيلين، فأمرنا رسول الله باتباعهما معا فقال: (بهما) ولم يفرد أحدا منهما بل جعلهما (ثقلين) لثقل المسؤولية التى تمكن باتباعهما. ولذلك يكون اتباع أهل البيت (ع) بعد رسول الله (ص) فرضا كما أن اتباع القرآن فرض على كلّ مسلم آمن بالله وبرسوله. ولو كان أحدهما يغنى عن الآخر لما أوصى النبى بهما معا.

ومما يدلّ على ذلك الحديث المتواتر عن أبى ذر الغفارى [١]t حيث قال وهو آخذ بباب الكعبة: ألا من عرفنى فقد عرفنى

ص: ٣٢

ومن لم يعرفنى فأنا أبو ذر جندب بن السكن، سمعت رسول الله (ص) يقول: إني خلّفت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض ألا وإن مثلهما فيكم كسفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق [٢].

بناء على ما مر، وكما لا يجوز الأخذ عن أعداء أهل البيت ومن ادّعى الإمامة والولاية والوصاية في مقابلهم، فكذلك لا يجوز طلب المعارف من غير العترة الطاهرة ولا يجوز الأخذ عن كل من ينتمى إلى مناهج مخالفة لمدرسة أهل البيت (ع) ومن أصول نابعة من غير الدين الإسلامى الحنيف فى صورته النقية التى جاء بها النبى وأهل بيته، والأخذ عن الفلاسفة والعرفاء والصوفية الذين قاموا بالتلفيق بين العقائد الإسلامية وبين ما لا يمتّ إلى الإسلام بصلة مما ترجم من التراث اليونانى الإغريقى وثقافته الوثنية المشركة بالله والرهبانية المبتدعة وغيرها من الديانات والمذاهب الفاسدة الأخرى.

فقد أبدع هؤلاء فى الدين وحرفوا الكلم عن مواضعه وضلّوا من اتبع آرائهم الباطلة، وقالوا بوحدة الوجود أو وحدة الوجود والموجود، وزعموا أن وجودنا ووجود الله تعالى من سنخ وجنس واحد، والفرق بينهما يكمن فى الشدّة والضعف.. فوجود الله شديد ووجودنا ضعيف، وهو الجوهر والخلق أعراضه، وإن الله بمنزلة البحر والموجودات بمنزلة القطرة التى فاضت من ذلك البحر، أو الموج الهائج فيه، وأنه بالرياضة النفسانية وخلال قوس الصعود يمكن أن نرجع فنفى فى ذلك البحر اللّجى [٣].

هذا وقد قال الله فى كتابه: (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين) [٤].

وقد وصف هؤلاء الله تعالى بما لم يصف به نفسه فاختلّفوا فى ذات الله وصفاته وأسماءه العليا التى منعوا عن التفكير فيها، وتاهوا عن سواء السبيل وحبل الله المتين الذى أمروا بالتمسك به، وهو أهل البيت الذين قال الله عنهم فى كتابه: (وابتغوا إليه الوسيلة) فكانوا هم السبيل إليه والمسلك إلى رضوانه.

ولا عجب فهذا هو مصير كل من اتبع هواه وترك سبيل القرآن وأهل بيت النبى (ع) الذين أكدوا أن وجود الله ووجودنا متباينين بالبينونة الصفيتية التى هى أشد أنواع البينونة، فالله عز و جل خالق ونحن مخلوقون، وهو قادر ذاتا ونحن عاجزون، وهو عالم ذاتا ونحن جاهلون وهو غنى ذاتا ونحن عاجزون، وكذلك فإن وجودنا واستمرار بقائنا متعلق بمشيئته تعالى لأن الله قائم بنفسه ووجودنا قائم به، وهو شىء بحقيقة الشئية ونحن شىء بالغير ومحتاج لحظة بلحظة إلى الغير من أجل تكوينه ووجوده وحتى شئيته.. وأن وجود الله أصل ذاته القديمة بينما وجودنا مقرون بالعدم.

كما لا يمكننا درك كنه وجود الله تعالى أبداً أو أن نحيط به علماً أبداً، وكل ما نستطيع أن نعقله فى باب معرفته تعالى هو إخراجة عن الحدين، حدّ التعطيل وحدّ التشبيه، وقد قال تعالى: (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) [٥].

فلكى يكون رضى الله عز و جل شاملاً لحالنا لا بد لنا أن نسلک الطريق الذى أمرنا بالسير فيه وأن نبتغى إليه الوسيلة المثلى التى أرشدنا إليها ومنّ علينا بجعلها سبيلاً إليه وسراطاً لنيل السعادة الأبدية لديه؛ ألا وهى التمسك بالقرآن وبالعترة الطاهرة، وقد نهانا الله تعالى عن اتباع غير سبيله فقال عز و جل: (وإن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) [٦].

ألا ترى أن الطريق إلى لقاء الواحد منا إنما يعينه ذلك الشخص لا غيره. فإذا أراد أحدنا أن يلتقى برئيس الدولة أو الملك – مثلا – لزم أن يجتاز العديد من القنوات المخصصة من قبل الملك، وإذا حاول المرء أن يدخل القصر الملكي عبر نافذة المنزل بدلا من بوابته للاقى ما لا يرضيه من الحرس وذلك لأنه أسخط الملك بفعلته ولأنه تعدى حدوده.

هذا بالنسبة إلى ملوك الدنيا فكيف بجبار السماوات والأرضين الذي قال: (ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون [٧].)

فلكى نحطى بلقائه ومعرفته تعالى، لا بدّ أن نطلب ذلك منه ومن حيث أمرنا هو، لا أن نخترع ونتدع السبل إليه من تلقاء أنفسنا، ولو فعلنا ذلك لم نصل إليه أبدا، بل لن تزيدنا كثرة السير إلى بعدا عن المقصود. كما نقرأ في دعاء للإمام على بن الحسين السجاد (ع): (الهي بك عرفتك وأنت دللتني عليك، ولولا أنت لم أدر ما أنت).

وكما أن النواة الفاسدة لا تنتج إلا نبتة فاسدة، فكذلك المنهج الفاسد الذي أخذ أصله من بعض الكفرة الملحدين أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم ممن أخذ عنهم وترك تعاليم النبي وأهل بيته والقرآن الذي (فيه تبيان لكل شيء) وراء ظهره أو اتبعوا ما تشابه منه (ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)، لا يمكن أن ينتج فكرا بناء للواقع المعيش الملموس، بدليل بطلان ما جاءوا به في العلوم الطبيعية كالنجوم والأفلاك وغيرها إلى حد فضيع ومخجل، فكيف له أن يكشف لنا حقيقة الأشياء وأن يوصلنا إلى معرفة البارئ، فتعالى الله عما يصفون علوا كبيرا.

فكما أن تطوّر العلوم والأبحاث الحديثة نسفت العلوم الطبيعية القديمة التي أنشأها الفلاسفة، كذلك فقد هدّت علوم الوحي وما جاء به الأنبياء والرسول ما تبقى من حطام الفلسفة التي بحثت ما يتعلق بالإلهيات و"ما وراء الطبيعة".

هذا وقد جاء النبي (ص) بها نقيّة صافية ولا حاجة لنا أن نمد أيدينا نحو هذا وذاك. فأهل البيت هم الباب الذي ينبغي لكل طالب علم صحيح أن يطرقه، فقد قال رسول الله (ص) في الحديث المشهور والمتفق عليه: (أنا مدينة العلم وعلى بابها، فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها)، وقال تعالى: (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها) فكيف بسقوفها أو جدرانها أو ما شابه ذلك! ثم يقول عزّ من قائل: (ولكن البرّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون)، ففي هذه الآية إشارة إلى المعنى الذي ذكره رسول الله (ص) ونهيا صريحا عما سوى ذلك.

فلا سبيل لطلب العلوم والمعارف الإلهية إلا عبر باب علم الرسول، أي على بن أبي طالب (ع) الذي قال: (علّمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب).

لذا فأهل البيت هم عيبة علم الله ومخزن أسراره، وهم باب حطّة والطريق إلى معرفة الله حق معرفته، والذين ما زالوا بصحبة القرآن حتى يوم القيامة ولا يمكن التفكيك بينهما ولا إضافة شيء آخر إليهما.

مثال علمي دقيق لتقريب المعنى

أضرب هنا مثالا من الطبيعة لأقرب المعنى؛ إن عنصر الأوكسجين - وهو عنصر أساسي وضروري لبقاء الحياة على وجه الكرة الأرضية - متوفر بشكل وسيع جدا، وبغض النظر عن أهمية الأوكسجين في التركيبات الحياتية كالماء وغيره من المركبات التي لولاها لقضى على الإنسان والحيوانات والنباتات حلى حد سواء، فإن من أشيع فوائد هذا العنصر هي في عملية التنفس المستمرة، حيث يتم استنشاقه وضخه عبر الرئة وبوسيلة الدم إلى جميع خلايا البدن وأعضائه خلال عملية معقدة وسريعة لا تستغرق إلا بضعة لحظات.

وما يهمننا هو تركيب نفس هذا العنصر بين ذراته. فيتشكل الأوكسجين المستنشق من ذرتين ملتصقتين معاً (ويسمى بالـ"داى اتوميك أوكسجين"، ولذلك يرمز إلى هذا النوع بـ(O₂)).

أما النوع الآخر هو الأوزون وهو ما يوجد بكثافة في طبقة الأوزون المحيطة بالكرة الأرضية. فهو نفس الأوكسجين، إلا أنه يتشكل من ثلاث ذرات من العنصر الواحد ويرمز له بـ(O₃) وله خواصه الكيماوية والفيزيائية المميزة.

وهناك نوع آخر من الأوكسجين وهو ما يتشكل من ذرة واحدة منفردة، ويمتاز هذا النوع بخواصه المنحصرة أيضا.

وبالرغم من أن هذه الغازات الثلاثة متشكلة من ذات العنصر وهو الأوكسجين، لكنها تختلف أشد الاختلاف من حيث الخواص لاختلاف عدد ذراتها. فإننا إذا استفدنا من عنصر الأوكسجين في حالته الطبيعية المزدوجة حصلنا على عنصر حياتي مهم لا يمكن التخلي عنه، أما إذا أضفنا إلى هذا شيء ثالث - ولو كان من نفس العنصر - لحصلنا على شيء آخر.. وإذا فصلنا ما بين الذرات حصلنا على الأوكسجين من نوع الـ(موناتوميك) وهو أيضا لا ينفع لعملية التنفس إن لم يكن مضرا لها.

فترى أن الأوزون هو غاز مسموم لا يمكننا استنشاقه، والأوكسجين "موناتوميك" كذلك فهو ما يتركب مع الكربون لإيجاد غاز الـ"مونو أكسيد الكربون" وهو غاز سام ملوث للهواء.

فليس لنا بد إلا من الاستفادة من الأوكسجين على ما هو عليه.. ومع الأخذ بعين الاعتبار أن "المثال يقرب من جهة ويبعد من جهات"، كذلك الثقيلين؛ حيث لا يمكن التفكيك بينهما والتمسك بأحدهما والتخلي عن الآخر، لأنهما متلازمان.. كما لا يمكن إضافة عنصر آخر إليهما كالفلسفة أو الرأى والقياس - مثلا - لأن ذلك لا يجنى فائدة قط، بل وإنه يفسد التركيبة ولن ننتفع بأى منهما.. (وكذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب).

[١] - الذى قال عنه رسول الله (ص): (ما أضلت الخضراء وما أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر).

[٢]- كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ص ٢٣٩، المستدرک علی الصحیحین: ج ٣ ص ١٦٣ ح ٤٧٢٠، و ج ٢ ص ٣٤٣، فرائد السمطين: ج ٢ ص ٢٤٦ ح ٥١٩، ینابیع المودة: ج ١ ص ٩٤ ح ٥، المناقب لابن المغازلی: ص ١٣٢ - ١٣٤، کتاب سلیم بن قیس الهلالي: ج ٢ ص ٩٣٧، وغيرها.

[٣]- قال صاحب (الأسفار) فی الجزء الثاني، الصفحة ٣٤٨: "اعلم أن واجب الوجود - أي الله - بسيط الحقيقة غاية البساطة، وكل بسيط الحقيقة كذلك، فهو كل الأشياء، فواجب الوجود كل الأشياء، لا يخرج عنه شيء من الأشياء". فتأمل!

[٤]- سورة الزخرف: الآية ١٥.

[٥]- سورة الشورى: الآية ١١.

[٦]- سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

[٧]- سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

الدلالة الثامنة:

يدل هذا الحديث النبوي بوضوح على أن الأرض لن تخلو من العترة الهادية بصحبة قرينها القرآن الكريم إلى يوم القيامة، وذلك لقوله: (وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض..) فلو خلت الأرض من أحدهما لافترقا من بعضهما وهذا يناقض قول الصادق المصدق.

وكذلك لأنّ صيانة الخلق من الضلالة والانحراف إنّما هي باتّباع مدرسة أهل البيت والأخذ عنهم إلى جنب القرآن، فما دام الخلق مأمورين بأداء الواجبات وإتيان التكاليف، ينبغي أن يبقى الثقلان - القرآن والعترة - موجودين على وجه الأرض وذلك لإتمام الحجّة. فالعترة ملازمة للقرآن والقرآن ملازم للعترة ومادام القرآن موجودا فالعترة موجودة أيضا إلى يوم القيامة. وقد اعترف بهذا المعنى ابن حجر في الصواعق [١] وفي أحاديث الحثّ على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة، كما أنّ الكتاب العزيز كذلك.

أما قول رسول الله (ص): (حتى يردا على الحوض) لا يعني إنّهما سيفترقان عندئذٍ بل هذا يفيد استحالة افتراقهما أبدا. فكما يقول أحدنا على سبيل المثال: (لن أعفو عن فلان حتى يوم القيامة..) فهو لا يعني أنّه سيعفو عنه في يوم القيامة، لأن ذلك اليوم هو يوم تقصّي الحقوق واسترجاع الأمانات، بل هو يوم الانتقام والأخذ بالثأر.. أو كأن يقول: (إنني لن أفعل هذا الشيء حتى أموت..) فلا يعني أنني إن متُّ سأفعله، بل سأكون في موتي عاجز عن فعله ولو أردت ذلك.

ص: ٣٦

وهذه الأمثلة كلها تفيد الاستحالة المطلقة. فليس فقط أن أهل البيت لن يفترقوا عن القرآن حتى في يوم القيامة ولن يتخلوا عنه فحسب، بل ستتجلى حقيقتهما وتلازمهما معاً لأهل العالم بصورة واضحة، وسينتقم رسول الله ممن ضيّع حقوقهما. ففي الحديث عن رسول الله (ص) أنه قال:

(يا قوم إني مخلف فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي وأرومتي ومزاج مائي وثمره فؤادي ومهجتي، لن يفترقا حتى يردا على الحوض، ألا وإني لا أسألكم في ذلك إلا ما أمرني ربي أن أسألكم عنه؛ أسألكم عن المودة في القربى واحذروا أن تلقوني غدا على الحوض وقد آذيتم عترتي وقتلتهم أهل بيتي وظلمتموهم، ألا إنه سيرد على يوم القيامة ثلاث رايات من هذه الأمة: الأولى راية سوداء مظلمة قد فرغت منها الملائكة، فتقف على فأقول لهم: من أنتم؟ فينسون ذكرى ويقولون: نحن أهل التوحيد من العرب. فأقول لهم: أنا أحمد نبي العرب والعجم. فيقولون: نحن من أمتك. فأقول: كيف خلفتموني من بعدى في أهل بيتي وعترتي وكتاب ربي؟ فيقولون: أما الكتاب فضيعناه، وأما العترة فحرصنا أن نبدهم عن جديد الأرض! فلما أسمع ذلك منهم أعرض عنهم وجهي فيصدرون عطاشى مسودة وجوههم. ثم ترد على راية أخرى أشد سوادا من الأولى، فأقول لهم: كيف خلفتموني من بعدى في الثقلين كتاب الله وعترتي؟ فيقولون: أما الأكبر فخالفناه وأما الأصغر فمزقناهم كل ممزق! فأقول: إليكم عنى. فيصدرون عطاشى مسودة وجوههم. ثم ترد على راية تلمع وجوههم نورا فأقول لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل كلمة التوحيد والتقوى من أمة محمد المصطفى ونحن بقية أهل الحق، حملنا كتاب ربنا وحلّلنا حلاله وحرّمنا حرامه وأحببنا ذرية نبينا محمد ونصرناهم من كل ما نصرنا به أنفسنا وقتلنا معهم من ناوأهم. فأقول لهم: أبشروا فأنا نبيكم محمد ولقد كنتم في الدنيا كما قلتم. ثم أسقيهم من حوضي فيصدرون مرويين مستبشرين، ثم يدخلون الجنة خالدين فيها أبد الأبدين)[٢].

فلا بد من استمرار وجود العترة إلى جنب القرآن لكي يبينوا علومه للناس. فقد روى الشيخ الصدوق عن رسول الله (ص) أنه قال: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وهما الخليفتان من بعدى، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض) ثم قال الصدوق: وتلقوا هذا الحديث بالقبول فوجب أن الكتاب لا يزال معه من العترة من يعرف التنزيل والتأويل علما يقينا يخبر عن مراد الله عز و جل كما كان رسول الله (ص) يخبر عن المراد ولا يكون معرفته بتأويل الكتاب استنباطا ولا استخراجا[٣].

و إذا قيل أن هذا الحديث يعنى أن القرآن و العترة لن يفترقا فى المعنى و الحقيقة، و أن العترة حتى لو فارقت فى هذه الدنيا فإنها لن تفارق القرآن فى الآخرة، فلا يعنى ذلك وجوب وجود العترة أو من يمثلها فى الدنيا.. أقول أن هذا مردود بدليل أن النبى قال: "إني تارك.. فهذا يعنى أنه سيفارق القرآن بوفاته.. فعلى هذا نبى أن الموت مفرق بينهما لو ماتت العترة. فلا بد من وجود إمام حى مع وجود القرآن..

على هذا وغيره من الأخبار الصحيحة عن النبى الأكرم (ص) ، كان الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر الذى هو من ولد فاطمة الزهراء عز و جل - كما صرحت بذلك الأحاديث المتواترة فى مواقع شتى - وهو من الجيل الحادى عشر بعد النبى (ص) وقد

طال عمره الشريف كما طال عمر نبي الله نوح بصريح القرآن، وقد أعدّه الله لقطع دابر الظلمة ولكي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملأت ظلماً وجوراً، وقد حظاً جمهور كبير من المؤمنين بلقياه في زمن ظهوره وغيبته، وقد وردت من ناحيته المقدسة العديد من التواقيع والرسائل والردود، وهو حيٌّ يرزق بلحمه وجلده وعظمه، لكنه مخفى عن الأنظار لحكمة اقتضاها علم الله عزّ شأنه، ولا منافاة بين غيبته وبين إمامته فقد ردّ رسول الله (ص) على هذه الشبهة بقوله: "أما وجه الانتفاع به في غيبته كوجه الانتفاع بالشمس إذا غيّبها السحاب".

فهو المقصود في زماننا هذا بالحديث الفاضل عن الرسول: (من مات لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) [٤].

ويعنى ذلك أن من لم يعرفه يموت ميتة كفر ونفاق وضلال كما لو مات في زمان الجاهلية الأولى! وهذا الحديث من الأخبار الصحيحة التي تؤكد وجود العترة في كل زمان، فلم يقيد النبي كلامه بزمان أو مكان معيّن بل أطلقه ليشمل كل العصور والأزمان، والحديث يدل على أن لكل زمان إمام واجب الطاعة والموالاتة منصوص عليه سلفاً من قبل الله على لسان نبيه.

والخلاصة أنّه لا بدّ من وجود ولو واحد من أهل البيت أ في كل زمان إلى قيام الساعة لا يخالف قوله ولا فعله القرآن حتّى لا يفترق عنه ومعنى أن لا يفترق قولاً وفعلًا عن القرآن أنّه معصوم قولاً وفعلًا يجب اتّباعه لأنّه أمان من الضلال.

وقد اتفق المسلمون قاطبة على صحة الأحاديث التي تبين أن الموت بدون بيعة لإمام، ميتة جاهلية.

وليس بوسع أحد التشكيك بصدور هذا المضمون عن النبي (ص)، وقد بلغت هذه الأحاديث حدّاً من الشهرة والاعتبار، أضحى من المتعذر معه - حتّى على أئمة الجور - إنكارها وجحودها، ولذا لجئوا إلى استغلالها عن طريق تحريفها وتزييفها أو مجرد تجاهلها والإعراض عنها.

يقول العلامة الأميني رحمه الله بعد نقل هذه الأحاديث عن صحاح أهل السنّة ومساندهم في موسوعة الغدير:

"هذه حقيقة راهنة أثبتتها الصحاح والمساند، فلا ندحة عن البخوخ لمفادها، ولا يتمّ إسلام مسلم إلاّ بالنزول لمؤدّاه، ولم يختلف في ذلك اثنان، ولا أنّ أحداً خالجه في ذلك شكّ، وهذا التعبير ينم عن سوء عاقبة من يموت بلا إمام وانه في منأى عن أي نجاح وفلاح، فإنّ الميتة الجاهلية إنّما هي شرّ ميتة، ميتة كفر وإلحاد" [٥].

وهذا الخبر صحيح يشهد له إجماع أهل الآثار ويقوى معناه صريح القرآن في أيّ كثيرة؛ منها قوله جل اسمه: (يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلًا). وهذه الآية دالّة على أن لكل مجموعة من الناس إمام بلا استثناء أحد من العالمين، وقوله تعالى "كل" دليل على ذلك.

فالمقصود من ضرورة معرفة إمام كلّ عصر هو أن الإمامة لا تنقطع أبداً، وأنّ الفرد إن مات وهو لا يعرف إمامه وقائده فهو ليس بمسلم حقيقي، بل أنه كافر كمن مات في زمان الجاهلية لا يعرف ربه وخالقه ويعبد الأصنام من دون الله، وأنّ عصر العلم

والهداية الذى بزغت شمسُه ببعثة النبى (ص) لا يمكنه الاستمرار إلا بمعرفة المسلمين - فى أىّ عصر كانوا - لإمامهم وإقتدائهم به، وذلك لكى يكون حجة عليهم وهاديا لهم فيما جهلوا وصيانة لهم من السقوط فى أحوال الجاهلية السابقة لعصر الإسلام. وبما أن البيعة لا تتم إلا مع المعرفة والتسليم والإقتداء المطلق، فلا يمكن لأحد أن يكتفى بالاعتراف بوجود الإمام، بل يجب عليه البحث والتنقيب من أجل معرفة ذلك الإمام حق معرفته ومن ثمّ موالاته ومشايعته فى كافة الأمور الدنيوية والأخروية.

فالإمامة هى الضامن والكفيل لاستمرار الإسلام الأصيل، ومع فقدان هذا الضمان فإنّ المجتمع الإسلامى سيؤوب إلى ما كان عليه من جاهلية قبل الإسلام، وهذا ما نشاهده اليوم حيث اندثر الدين ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه.

إنّ أول سؤال يبادر إلى الذهن حين سماع هذا الحديث هو: من الإمام الذى تجب معرفته ومبايعته على كل مسلم فى كل زمان ومكان؟ وإمامة أىّ إمام تضمن استمرار الإسلام المحمديّ الأصيل؟ وفقدان الأمة لأئمة الإمامة هو تراجع إلى زمان الجاهلية العمياء وزمان الكفر والإلحاد وعبادة الأوثان؟!

فهل يمكننا أن نظنّ بأنّ مقصود النبى (ص) هو وجوب معرفة واتّباع أىّ شخص أخذ بزمام الأمور واستولى على كرسىّ الرئاسة فى المجتمع الإسلامى؟! وأنّ من لم يعرف إماما كهذا ولم يبايعه يموت ميتة جاهلية، دون توجه إلى إمكان اتّصاف هذا "الإمام" بالظلم، فيغدو من أئمة النار حسب التعبير القرآنى؟!

وبطبيعة الحال فقد حاول أئمة الجور على طول التاريخ الإسلامى أن يستندوا إلى هذا الحديث لتثبيت أركان حكومتهم وتبرير وجوب إطاعة الناس لهم وذلك بتقمّص هذا المقام الإلهى الرفيع، مقام الإمامة العظمى وقيادة الأمة الإسلامية نحو رضى رب العزة والجلال. أو بعبارة أخرى، أن يهدموا الإسلام باسم الإسلام. وهنا تكمن الطامة الكبرى حيث يقتدى عوام الناس بمن غصب الإمامة وهم مع ذلك يظنون أنهم يحسنون صنعا. ومن الطبيعى كذلك أن يعمد وعاظ السلاطين - بنفس تلك الدواعى - إلى تأويل كلام رسول الله (ص) لينطبق على إمامة أئمة الجور وكل من حصل على السيف والصولجان، ليكونوا بذلك ممن باع آخرته بدنيا غيره.

ثم لا يمكن أبدا أن نتصوّر أنّ عبد الله بن عمر - وكما جاء فى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة - يمتنع عن مبايعة الإمام على لنقص درايته أو لسوء استنباطه، ثمّ يهرع ليلا وتمسّكا بحديث (من مات بغير إمام) الذى يعدّ هو من رواته إلى الحجّاج بن يوسف الثقفى لمبايعة خليفة زمانه عبد الملك بن مروان، لأنّه يخشى أن يبيت ليلة بدون إمام!!

يقول ابن أبى الحديد: إنّ عبد الله بن عمر امتنع من بيعة على (ع) و طرّق على الحجّاج بابه ليلا ليبايع لعبد الملك كى لا يبيت تلك الليلة بلا إمام، لأنّه روى عن النبى (ص) أنّه قال: من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية، وحتّى بلغ من احتقار الحجّاج له واسترداله حاله أن أخرج رجله من الفراش، فقال: اصفق بيدك عليها [6].

وقد روى عبد الله بن عمر هذا الحديث [7] للثائرين فى المدينة ليدخلوا فى طاعة يزيد واضعا يزيد كقدوة ومصداق لهذا الحديث! وبطبيعة الحال، فإنّ من لا يبايع أمير المؤمنين عليا (ع) لأنّه لا يعدّه إماما مؤهلا للأخذ بزمام الأمة وإرشادها إلى

الصواب - مع كل ما ورد في حقه وحق باقى أهل بيت العصمة والطهارة من مناقب - لا بد أن يرى عبد الملك بن مروان إماما،
يوجب ترك بيعته الكفر والعودة إلى الجاهلية. ولا بد كذلك أن يصفق تحت جناح الظلام على رجل عامله السفاح الحجاج بن
يوسف الثقفى الذى كان يستحسن لعن على وفاطمة والحسن والحسين على منبر رسول الله (ص) ، والذى قلما رأى التاريخ
مثله فى وحشيته وسفكه لدماء المسلمين. هذا وقد آل الأمر بعبد الله بن عمر إلى أن يرى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان مع كل
ما جنت يده بحق الإسلام وعترة الرسول (ص) وقتله سبط رسول الله الإمام الحسين (ع) فى وقعة الطف [٨]، واستباحته لمدينة
رسول الله حين ثار أهلها عليه وتركه لجنوده أن يغتصبوا عشرة آلاف فتاة عذراء، وكذلك أخذ البيعة منهم على أنهم عبيد له،
وكذلك هدمه لبيت الله الحرام والكعبة المشرفة.. رآه مصداقا لـ "الإمام" فى الحديث المذكور وتوجب مخالفته وعدم مبايعته
الكفر والارتداد!!

فتأمل أيها القارئ.. أهذا هو من أمر النبى الأكرم بمعرفته ومبايعته؟! أم أهل بيته الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيرا ولم يجد التاريخ لهم مثالب قط؟

ورغم إخفاء الطغاة لمناقبيهم بغضا وحسدا، وإخفاء شيعتهم لها خوفا من القتل والتشريد، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره [٩].. فهذا
معاوية بن أبى سفيان يأمر جلاوزته باستئصال الشيعة فيقول: "انظروا من روى حديثنا عن أبى تراب [١٠] فاحذفوه من الديوان..
خذوهم بالظنة واقتلوهم بالتهمة.. لا والله إلا دفنا دفنا!!"

والخلاصة أننا إذا جمعنا بين الحديث الذى مر ذكره وبين حديث الثقلين ودلالته على وجود العترة فى كل زمان، لحصل لنا
اليقين بمصداق الإمام وتعريف هويته.

لذلك فإن الشيعة الإثنى عشرية يقولون بلزوم وجود إمام فى كل زمان من أهل البيت، يكون معصوماً عن الخطأ والزلل ويجب
موالاته ومعرفته، وهم بذلك يعتقدون بإمامة الأئمة الإثنى عشر ابتداءً بأمر المؤمنين الإمام على بن أبى طالب، وابنيه الحسن
والحسين، والسجاد على بن الحسين، والباقر محمد بن على، والصادق جعفر بن محمد، والكاظم موسى بن جعفر، والرضا على
بن موسى، والجواد محمد بن على، والهادى على بن محمد، والعسكرى حسن بن على، والحجة القائم المنتظر المهدي الغائب أ.

وقد صرحت روايات عديدة بأسماء الأئمة وعددهم وبعض أحوالهم، نذكر بعضها فيما يلي:

جابر بن سمرة: سمعت رسول الله (ص) يقول: لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة. ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبى:
ما قال؟ فقال: كلهم من قريش [١١].

مسروق: كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتهم رسول الله (ص): كم
تملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما سألتى عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألتنا
رسول الله (ص) ، فقال: اثنا عشر، كعدة نقباء بنى إسرائيل [١٢].

أبو سعيد رفعه عن الباقر (ع): قال رسول الله (ص): من ولدى اثنا عشر نقيبا، نجباء محدثون مفهمون، آخرهم القائم بالحق، يملأها عدلا كما ملئت جورا [١٣].

ابن عباس - فى قوله تعالى (والسّماء ذات البروج) - قال رسول الله (ص): أنا السماء، وأمّا البروج فالأئمة من أهل بيتى وعترتى، أولهم على وآخرهم المهدي، وهم اثنا عشر [١٤].

الإمام الباقر عن أبيه عن الحسين أ: دخلت أنا وأخى على جدّى رسول الله (ص)، فأجلسنى على فخذه، وأجلس أخى الحسن على فخذه الأخرى، ثمّ قبّلنا وقال: بأبى أنتما من إمامين صالحين، اختاركما الله منى، ومن أبيكما وأمّكما، واختار من صلبك يا حسين تسعة أئمة، تاسعهم قائمهم، وكلّكم فى الفضل والمنزلة عند الله تعالى سواء [١٥].

فالأحاديث التى مرّت لا تدلّ إلاّ على إمامة الأئمة الإثني عشر من أهل البيت (ع). وقد تكرر هذا المضمون فى الأحاديث والأخبار مما يجعله فى حد التواتر، نكتفى هنا بذكر بعض ما ظفرت عليه من المصادر على العجالة كنماذج لا للحصر:

صحيح البخارى: ج ٦ ص ٢٤٤٠ ح ٦٧٩٦.

صحيح المسلم: ج ٣ ص ١٤٥٢ ح ١٠٠٣ و ج ٣ ص ١٠٠٣ ح ١٤٥٣.

سنن الترمذى: ج ٤ ص ٥٠١ ح ٢٢٢٣.

مسند ابن حنبل: ج ٧ ص ٤٣٠ ح ٢٠٩٩٥، و ج ٢ ص ٥٥٥ ح ٣٧٨١، و ج ٧ ص ٤١٠ ح ٢٠٨٦٩.

مسند أبى يعلى: ج ٥ ص ٣١ ح ٥٠٠٩، و ج ٦ ص ٤٧٣ ح ٧٤٩٢.

تاريخ واسط: ص ٩٨.

ينابيع المودّة: ج ٣ ص ٢٩٠ ح ٤٠.

إحقاق الحق: ج ١٣ ص ٣٠.

المستدرک على الصحيحين: ص ٧١٦ ح ٦٥٨٩، و ج ٤ ص ٥٤٦ ح ٨٥٢٩.

المعجم الكبير: ج ٨ ص ٤١١ ح ٣٥٢٠.

أمالى الصدوق: ص ٢٥٥ ح ٨.

الخصال: ص ٤٧٠ ح ١٦، و ص ٤٧٣ ح ٢٧، و ص ٤٧٣ ح ٣٠ وغيرها.

ومن الأدلة التي تؤكد على ضرورة وجود إمام في كل زمان هي قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) ففي هذه الآية دليل على أنه عز وجل يستعمل هذا المعنى في أرضه إلى يوم القيامة، فإن الله عز وجل لم يخصص جعل الخليفة في زمان معين بل أطلقه فلزم أن يكون في كل زمان خليفة لله، فإن الأرض لا تخلو من حجة له عليهم وحكمة الله في السلف كحكمتهم في الخلف لا يختلف في مر الأيام وكر الأعوام وذلك أنه عدل حكيم.

ومن زعم أن الخليفة - في هذه الآية - أراد به النبوة فقد أخطأ وذلك إن الله عز وجل وعد أن يستخلف من هذه الأمة الفاضلة خلفاء راشدين كما قال تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) [١٦]، ولم يتحقق هذا الوعد في زمن النبي وحتى يومنا هذا حيث الظلم والاضطهاد والخوف والفساد منتشر في شتى بقاع الأرض، ولو كانت قضية الخلافة تعنى النبوة أوجب حكم الآية وصيغة الجمع فيها، أن يبعث الله عز وجل نبياً بعد محمد (ص) وما صحّ قوله: (وخاتم النبيين) [١٧]، وهذا محال، فثبت إن الوعد من الله عز وجل ثابت من غير النبوة وثبت إن الخلافة مغايرة للنبوة وقد يكون الخليفة غير نبي ولا يكون النبي إلا خليفة.

ويصح الاستدلال بهذه الآية على أن الخلافة منحصرة بتعيين من الله عز وجل وليس لأحد أن يختار الخليفة إلا الله وذلك لقوله تعالى (جاعل) فاختيار الخليفة إنما يكون جعلاً من الله وليس أمراً مفوضاً إلى الخلق. وكذلك قوله عز وجل: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن فقال إني جاعلك للناس إماماً) فالله عز وجل هو الذي يجعل الإمام في الناس، وحرف التوكيد (إن) دليل على ذلك.

[١]- الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٥١.

[٢]- بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٤٨، وغيره بألفاظ مشابهة.

[٣]- كمال الدين وتمام النعمة: ص ٦٤.

[٤]- راجع مسند أحمد بن حنبل: ج ٦ ص ٢٢ ح ١٦٨٧٦، المعجم الكبير: ج ١٩ ص ٣٨٨ ح ٩١٠، الملاحم والفتن: ص ١٥٣، مسند أبي داود الطيالسي: ص ٢٥٩، المعجم الكبير: ج ١٠ ص ٢٨٩ ح ٦٨٧، صحيح مسلم: ج ٣ ص ٥٨ ح ١٤٨٧، السنن الكبرى: ج ٨ ص ٢٧٠ ح ١٦٦١٢ وغيرها.

[٥]- الغدير: ج ١٠ ص ٣٦٠.

[٦]- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢٤٢.

[٧]- صحيح مسلم: ج ١٣ ص ١٤٧٨ ح ١٨٥١.

[٨]- و يزيد هو الذى قال عنه الإمام الحسين مبيناً سبب رفضه البيعة له: "إنا أهل بيت النبوة و معدن الرسالة، و مختلف الملائكة، بنا فتح الله و بنا يختم، و يزيد شارب الخمر، و راكب الفجور، و قاتل النفس المحترمة، و مثلى لا يبايع مثله.."

[٩]- نظم هذا المعنى السيد تاج الدين العاملى فى بيتين وهما:

لقد كتمت آثار آل محمد محبوبهم خوفاً وأعدائهم بغضا

فأبرز من بين الفريقين نبذة بها ملأ الله السماوات والأرضاً

نقلًا عن كتاب "لماذا اخترت مذهب أهل البيت".

[١٠]- أى الإمام على (ع) و كان يستعمل هذه الكنية استحقاقاً له

[١١]- صحيح مسلم: ج ٣ ص ٧ ح ١٤٥٣، و ج ٨ وفيه (هذا الأمر) بدلاً من (الإسلام)، و ج ٩ وفيه (هذا الدين عزيزاً منيعاً). (وضمنها الناس) بدل لم أفهما، مسند أحمد ابن حنبل: ج ٧ ص ٤٢٢ ح ٢٠٨٨٢، سنن أبى داود: ج ٤ ص ١٠٦ ح ٤٢٨٠، تاريخ بغداد: ج ٢ ص ١٢٦، وفيهما: (فكبر الناس وضجوا ثم قال ...).

[١٢]- مسند احمد بن حنبل: ج ٢ ص ٥٥ ح ٣٧٨١، المستدرک على الصحيحين: ج ٤ ص ٥٤٦ ح ٨٥٢٩، المعجم الكبير: ج ١٠ ص ١٥٨ ح ١٠٣١٠، مسند أبى يعلى: ج ٥ ص ٣١ ح ٥٠٠٩، وراجع الخصال: ٤٦٧/٦-١١ أمالى الصدوق: ٢٥٤/٤-٧.

[١٣]- الكافي: ج ١ ص ٥٣٤ ح ١٨.

[١٤]- ينابيع المودة: ج ٣ ص ٢٥٤ ح ٥٩.

[١٥]- إكمال الدين: ص ٢٦٤ ح ١٢، عن أبى حمزة الثمالى.

[١٦]- سورة النور: الآية ٢٥.

[١٧]- سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

بحث فى هوية أهل البيت

بعد أن تبين لنا ضرورة اتباع أهل البيت والعترة الطاهرة (ع) و وجوب التمسك بعروتهم الوثقى والأخذ عنهم، وبعد أن عرفنا الحق وجب أن نعرف أهله، ولزم أن نعرف من هم المعنيون بالعترة و "أهل البيت" حتى نقتدى بهم. وهنالك فيما مر من الأخبار والأحاديث ما يكفى لمعرفة، ومن أوضح الروايات فى هذا الباب، أى فى تعيين أهل البيت دون غيرهم من أزواج النبى (ص) ما نقله السيوطى فى الدر المنثور عن ابن مردويه عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية فى بيتى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وفى البيت سبعة، جبرائيل وميكائيل وعلى وفاطمة والحسن والحسين، وأنا على باب البيت، قلت يا رسول الله ألسنت من أهل البيت؟!

فقال: إنك على خير. إنك من أزواج النبى [١].

وعن الريان بن صلت قال: حضر الرضا (ع) مجلس المأمون بمرور وقد اجتمع فى مجلسه جماعة من أهل العراق وخراسان - إلى أن قال - فقال المأمون: من العترة الطاهرة؟

فقال الرضا (ع): الذين وصفهم الله فى كتابه فقال عز و جل: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وهم الذين قال رسول الله (ص): (إنى مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، وانظروا كيف تخلفونى فيهما، أيها الناس، لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم).

فقال العلماء: أخبرنا يا أبا الحسن عن العترة أهم الآل أو غير الآل؟

فقال الرضا (ع): هم الآل.

فقال العلماء: فهذا رسول الله (ص) يؤثر عنه أنه قال: أمتى آلى، وهؤلاء أصحابه يقولون بالخبر المستفاض الذى لا يمكن دفعه: آل محمد أمته.

فقال أبو الحسن (ع): أخبرونى هل تحرم الصدقة على الآل؟

قالوا: نعم.

قال: فتحرم على الأمة؟

قالوا: لا.

قال: هذا فرق ما بين الآل والأمة [٢].

وفى رواية الحاكم فى مستدركة قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: (إنك إلى خير وهؤلاء أهل بيتي، اللهم أهل بيتي أحق) [٣].

وفى رواية أحمد: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجدبه من يدي وقال إنك على خير [٤].

وأيضاً، عن أم سلمة أن النبي (ص) جلى على الحسن والحسين وعلى وفاطمة كساء ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فقالت أم سلمة وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: إنك إلى خير.

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح وهو أحسن شيء روى فى هذا الباب وفى الباب عن عمر بن أبى سلمة وأنس بن مالك وأبى الحمراء ومعتل بن ياسر وعائشة [٥].

وفى هذا كفاية فى أن أهل البيت هم أصحاب الكساء خاصة، أى على وفاطمة والحسن والحسين بأوضح العبارات وأكثر الألفاظ صراحة، فيكونون بذلك عدول القرآن الذى أمرنا رسول الله (ص) بالتمسك بهم فى حديث الثقلين. فقد عيّنت هذه النصوص المصاديق الحقيقية لأهل البيت بما لا يدع مجالاً لأدنى شك، بحيث ينفى الرسول (ص) صراحة انضواء زوجته الجليلة تحت عنوان "أهل البيت" ويمنعها من اللحاق بأصحاب الكساء لينفى احتمال دخول زوجاته تحت هذا العنوان.

فهناك - وللأسف - من أراد تشويه المعنى فذهب إلى أحد المعانى اللغوية الشاذة للآل والأهل، فقال أنها تعنى أمة رسول الله! لكن أسئلكم بالله، هل يعقل أن يجمع النبي أمته فيقول لهم ما معناه: "إنى تارككم فى أمتى كتاب الله و أمتى..!!"؟! و أمثال هذه الأقوال لا تشعر إلا بحقد دفين فى قلوب مريضة تجاه آل الرسول الذين أمرنا باتباعهم، فإننا لله و إنا إليه راجعون..

ولا يمكن لأحد أن يدعى بأن العترة بمعنى مطلق القريبى حتى يشمل النسب والحسب والأزواج لكى يشوه المعنى فهذا القول غير مقبول، لأن هذا لم يقل به أحد من اللغويين ولا المفسرين أو المحدثين.

فقد نقل ابن منظور فى لسان العرب: عِتْرَةُ الرَّجُلِ: أَقْرَبَاؤُهُ مِنْ وَلَدِهِ وَغَيْرِهِ، وَقِيلَ: هُمْ قَوْمُهُ دِينِيًّا، وَقِيلَ: هُمْ رَهْطُهُ وَعَشِيرَتُهُ الْأَدْنَوْنَ مَنْ مَضَى مِنْهُمْ وَمَنْ غَبَرَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ: "نَحْنُ عِتْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا وَبَيَّضَتْهُ الَّتِي تَفَقَّاتُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا جِيئَ الْعَرَبُ عَنَّا كَمَا جِيئَ الرَّحَى عَنْ قُطْبِهَا"، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: لِأَنَّهُمْ مِنْ قَرِيشٍ؛ وَالْعَامَّةُ تَظُنُّ أَنَّهَا وَلَدُ الرَّجُلِ خَاصَّةً وَأَنَّ عِتْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَدُ فَاطِمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ هَذَا قَوْلُ ابْنِ سَيِّدِهِ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ التَّقْلِينَ خَلْفِي: كِتَابَ اللَّهِ وَ عِتْرَتِي فَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ؛ وَقَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ وَ رَفَعَهُ نَحْوَهُ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ وَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ، وَ فِي بَعْضِهَا: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ التَّقْلِينَ: كِتَابَ اللَّهِ وَ عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَجَعَلَ الْعِتْرَةَ أَهْلَ الْبَيْتِ.

و قال أبو عبيد وغيره: عِتْرَةُ الرَّجُلِ وَ أُسْرَتُهُ وَ فَصِيلَتُهُ رَهْطُهُ الْأَدْنَوْنَ.

ابن الأثير: عِتْرَةُ الرَّجُلِ أَخْصُ أَقَارِبِهِ.

وقال ابن الأعرابي: العترة ولد الرجل و ذريته و عقبه من صلبه، قال: فعترته النبي، صلى الله عليه و سلم، و ولد فاطمة البتول، عليها السلام.

و روى عن أبي سعيد قال: العترة ساق الشجرة، قال: و عترة النبي، صلى الله عليه و سلم، عبد المطلب ولده، و قيل: عترة أهل بيته الأقربون و هم أولاده و على و أولاده و المشهور المعروف أن عترة أهل بيته، و هم الذين حُرِّمَت عليهم الزكاة و الصدقة المفروضة، و هم ذوو القربى الذين لهم خُمسُ الخُمسِ المذكور في سورة الأنفال..

أقول: أما استشهاد المصنف بقول أبي بكر في السقيفة لبيان قربه من رسول الله و أحقيته بالخلافة فهو أوهن من أن يناقش، فإذا كان أبو بكر يستشهد بأنه من عشيرة رسول الله، فماذا عمن آخى رسول الله بينه و بينه؛ و هو على، و من صاهره فصار من أهل بيته؛ و هو على، و من جعله رسول الله ولياً للناس بعده؛ و هو على، و من جعله رسول الله من نفسه بمنزلة هارون من موسى؛ و هو على..؟ و هلمّ جراً.

و قد أكد أمير المؤمنين هذا المعنى، ففي (بحار الأنوار): "قالوا لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أبناء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله..، قال عليه السلام: ماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجّت بأنها شجرة الرسول (ص). فقال عليه السلام: احتجّوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة..

بيان: .. و الغرض إلزام قريش بما تمسّكوا به من قرابته صلى الله عليه و آله، فإن تمّ فالحق لمن هو أقرب و أخصّ، و إلّا فالأنصار على دعواهم [٤].

قال مصنف "مجمع البحرين": باب (عترة): في حديث الصادق (ع) مع آبائه عن الحسن بن علي (ع) قال سئل أمير المؤمنين عن معنى قول رسول الله (ص) إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي من العترة؟ فقال (ع): أنا و الحسن و الحسين و الأئمة التسعة من ولد الحسين تأسعهم مهديهم و قائمهم، لا يفارقون كتاب الله و لا يفارقهم حتى يردوا على رسول الله (ص) حوضه و في حديث آخر و قد سئل: و من عترة النبي؟ فقال: أصحاب العباء.

و عن ابن الأعرابي حكاه عنه تغلب العترة: ولد الرجل و ذريته من صلبه، و لذلك سميت ذرية محمد من على و فاطمة عترة محمد.

قال تغلب: فقلت لابن الأعرابي فما معنى قول أبي بكر في السقيفة نحن عترة رسول الله ص قال: أراد بذلك بلدته و بيضته و عترة محمد لا محالة ولد فاطمة - كذا في معاني الأخبار.

و العترة: أصل الشجرة المقطوعة، و هم أصل الشجرة المقطوعة لأنهم وتروا و قطعوا و ظلموا.."

فيتضح من هذا المعنى أن تعبير "أهل البيت" لا يعنى مطلق الأقارب وإنما هم أخص الأقارب، ولذلك عندما سئل زيد بن أرقم فى رواية مسلم: "فمن أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وأيم الله.. إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلّقها فترجع إلى أبيها وقومها.. (وإنما) أهل بيته أصله وعصبته الذين حرّموا الصدقة من بعده..".

ومن ثم لو كانت الآية قد نزلت فى زوجات النبي، للزم أن يخاطبهم القرآن بصيغة التأنيث لا التذكير وأن يذكر "البيت" بصيغة الجمع، وذلك بقريئة الآيات الأخرى حيث يذكر الله بيوت النساء بصيغة الجمع كقوله تعالى: (واذكرون ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) [٧]، وقوله تعالى: (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى).

فكان من المفترض أن تكون الآية بهذه الصيغة: (إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيوت ويطهركن تطهيرا) ولا أعتقد أن هذا التعبير قد جاء فى أى من القراءات المروية! [٨]

أما وحدة السياق فيكذبها هذا الكم الهائل من الأحاديث التى تنفى دخول نساء النبي فى دائرة التطهير، كما أن عدم الإختلال فى معنى الآية بعد رفع المقطع المذكور دليل على عدم وحدة السياق، بالإضافة أن الأحاديث المتواترة جاءت لتؤكد على أن آية التطهير نزلت على انفراد دون باقى الآية التى تخص نساء النبي.

كما أن شرف الانتماء لأهل البيت لم يدعه أحد من أقارب رسول الله (ص) ولا زوجاته، وإلاّ لحدثنا التاريخ بذلك، فلا يذكر لنا التاريخ أن زوجات النبي (ص) احتجبن بهذه الآية أو ادّعين هذا المقام، هذا على الرغم من أن عائشة -مثلاً- كانت فى أمسّ الحاجة لما يدعم و يعزز موقفها فى مقابل أمير المؤمنين فى حرب الجمل، لكننا لا نرى لها ادعاءً فى أن لها فى هذا الآية نصيب، بل هناك أحاديث تنسب الآية إلى أهل البيت دون نساء النبي وهى مروية عن عائشة نفسها [٩].

و من جهة أخرى نرى أن أهل البيت يؤكدون نزول الآية فى حقهم مع ما هنالك ما يؤيد ذلك فى الأحاديث و السنن، فهذا أمير المؤمنين (ع) يقول: (إن الله عز و جل فضّلنا أهل البيت وكيف لا يكون كذلك والله عز و جل يقول فى كتابه: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فقد طهّرنا الله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فنحن على منهاج الحق).

وقال ابنه الحسن (ع): (أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على، وأنا ابن البشير النذير الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذى كان ينزل فيه جبرائيل ويصعد، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا). وفى موضع آخر يقول: (وأقول معشر الخلائق فاسمعوا، ولكم أفئدة وأسماع فعوا، إنا أهل بيت كرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا واجتباننا فأذهب عنا الرجس وطهّرنا تطهيرا).

وقال الحسن (ع) أيضا فى خطبة له: يا أهل العراق اتقوا الله فينا فإننا أمرائكم وضيّفانكم ونحن أهل البيت الذى قال الله عز و جل: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا).

فما زال يومئذ يتكلّم حتى ما يرى فى المسجد إلاّ باكيا [١٠].

ونذكر فيما يلي المزيد من الروايات الصحيحة حول آية التطهير ونزولها في حق أهل البيت (ع):

روى عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن طالب (ع) قال: قال رسول الله (ص): إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كهاتين - وضم بين سبائيه - فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري وقال: يا رسول الله من عترتك؟ قال: علي والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين إلى يوم القيامة [١١].

وروى في مناقشة لأمير المؤمنين أنه قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله (ص) قام خطيبا لم يخطب بعد ذلك فقال: (أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فتمسكوا بهما لئلا تضلوا فإن اللطيف الخبير أخبرني وعهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) فقام عمر بن الخطاب وهو شبه المغضب فقال: يا رسول الله أكل أهل بيتك؟ فقال: (لا ولكن أوصيائي منهم أولهم أخى ووزيرى ووارثى وخليفتى فى أمتى وولى كل مؤمن من بعدى، هو أولهم، ثم ابنى الحسن، ثم ابنى الحسين، ثم تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد حتى يردوا على الحوض، شهداء الله فى أرضه وحججه على خلقه وخزان علمه ومعادن حكمته من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله عز و جل؟

فقالوا كلهم: نشهد أن رسول الله (ص) قال ذلك [١٢].

وعن شداد أبى عمّار قال: دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا عليا فشموه فشمته معهم. فلما قاموا قال لى: لم شتمت هذا الرجل؟

قلت: رأيت القوم شتموه فشمته معهم.

فقال: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله (ص)؟

قلت: بلى.

فقال: أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت: توجه إلى رسول الله (ص)، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله (ص) ومعه علي وحسن وحسين آخذا كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى عليا وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه - أو قال كساء - ثم تلا هذه الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق [١٣].

شداد بن عبد الله: سمعت وائلة بن الأسقع وقد جرى برأس الحسين بن علي (ع) [١٤] قال: فلقيه رجل من أهل الشام، فغضب من أهل الشام، فغضب وائلة وقال: والله، لا أزال؟ سمعت رسول الله (ص) وهو فى منزل أمّ سلمة يقول فيهم ما قال.. (وذكر الحديث نفسه) [١٥].

للمزيد من الأخبار في هذا الباب الشاسع راجع المصادر التالية من كتب أهل السنة:

تفسير الطبرى: ١٢/الجزء ٧/٢٢، الدرّ المنتور: ٤٠٣/٦، تاريخ دمشق (ترجمة الإمام الحسين): ٦٠ الأخبار الواردة في نزول آية التطهير، مختصر تاريخ دمشق ١١٩/٧، كنز العمال: ٦٤٥/١٣، شواهد التنزيل ١٨/٢، ينابيع المودة: ٣٢٩/١ باب ٣٥ في تفسير آية التطهير، المناقب للخوارزمي: ٦٠ الفصل الخامس، تفسير الآل والأهل، إحقاق الحق: ٥٠١/٢-٥٦٢، و: ٥١٣/٣-٥٣١، و١/٩-٦٩، و: ٤٠/١٤-١٠٥، و: ٣٨٢-٣٥٩/١٨ بحار الأنوار: ٢٠٦/٣٥ باب في آية التطهير، المناقب للخوارزمي: ٣٢/٦٣، كنز العمال: ٣٧٥٤/٦٠٣/١٣ نقلا عن الديلمي عن واثلة، وذكر أيضا في: ٣٤١٨٦/١٠١/١٢ وغيره.

[١]- الدرّ المنتور: ج ٥ ص ١٩٨.

[٢]- أمالي الصدوق: ج ١ ص ٤٢٢، عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٢٢٩ ح ١

[٣]- مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٤١٦، تفسير الآيات من سورة الأحزاب.

[٤]- مسند أحمد: ج ٣ ص ٢٩٢ - ٣٢٣.

[٥]- سنن الترمذی: ٣٨٠٦.

[٦]- ج : ٢٩ ص : ٦١١

[٧]- سورة الأحزاب: الآية ٣٤.

[٨]- إلا اللهم أن يقول قائل أن هذا اللفظ وارد، لكنه تعرض لما تعرضت له آيتي "الرجم" و "رضاع الكبير"؛ فقد روى عن عائشة أنها قالت: "لقد نزلت آية الرجم و رضاعة الكبير عشراً، و لقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله و تشاغلنا بموته، دخل داجن فأكله!" راجع مسند أحمد ٢٦٩/٦ و سنن ابن ماجة حديث رقم ١٩٤٤ من كتاب النكاح..

[٩] - كما في صحيح البخارى و مسلم عن الأصول العامة.

[١٠]- المعجم الكبير: ج ٣ ص ٩٦ ح ٢٧٦١، المناقب لابن المغازلي: ص ٣٨٢ ح ٤٣١، تاريخ دمشق (ترجمة الإمام الحسن): ج ٣ ص ١٨٠، و ص ٣٠٥، و ص ٣٠٧، و ج ٦ ص ١٨٢.

وهذا مما سنّه معاوية بن أبى سفيان فى حق أمير المؤمنين والحسن والحسين (ع) و جرت سنّته هذه لمدة طالّت أكثر من ٩٠ عاما! و لكنك ترى أن الشيعة هم المتهمون بسب الصحابة على الرغم من أن ابن آكلة الأكباد هو الذى أسس شتم أمير المؤمنين و لعنه على منبر رسول الله.

ص: ٤٩

[١١]- كمال الدين وتمام النعمة: ص ٢٤٤.

[١٢]- كمال الدين وتمام النعمة: ص ٢٧٩.

[١٣]- راجع فضائل الصحابة لابن حنبل: ج ٢ ص ٥٧٧ ح ٩٧٨، مسند ابن حنبل: ج ٦ ص ٤٥ ح ١٦٩٨٥، المصنّف لابن أبي شيبّة: ج ٧ ص ٥٠١ ح ٤٠، العمدة: ص ٤٠ ح ٢٥، المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٩ ح ٢٦٧٠ و ٢٦٦٩، المستدرک علی الصحیحین: ج ٣ ص ١٥٩ ح ٤٧٠٦، و ص ٤٥١ ح ٣٥٥٩، مسند أبي يعلى: ج ٦ ص ٤٧٩ ح ٧٤٤٨، نثر الدر: ج ١ ص ٣٦، السنن الكبرى: ج ٢ ص ٢١٧ ح ١٨٧٠.

[١٤]- الذى قتل وأهل بيته وأولاده وأصحابه وحتى طفله الرضيع فى كربلاء سنة ٦١هـ على يد الطاغية يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

[١٥]- فضائل الصحابة لابن حنبل: ج ٢ ص ٦٧٢ ح ١١٤٩، أسد الغابة: ج ٢ ص ٢٧، العمدة: ص ٣٤ ح ١٥.

إنّ سند حديث الثقلين أصحّ وأوضح من أن يناقش، ولذا فقد ارتكزت أبحاث الكتاب فى محتوى الحديث ودلالاته، لا فى سنده ورجاله. لكننى أوردت هذا الفصل لمن يريد التتبع فى سند الحديث بشكل موجز وعبر المصادر الأولية لدى السنّة. أما فى المصادر الشيعية، فقد ورد الحديث بشكل مكثف وواسع وهو من المسلمات التى لا يشك أحد فيها. ولقد تواتر بل فاق حدّ التواتر لدى الفريقين، وهو مروى عن عدد كبير من الصحابة والتابعين، وذلك لأنّ النبى ذكره مرارا وتكرارا، وقد أورده أرباب الرواية فى صحاحهم وفى الكثير من الكتب المعتمدة عند الشيعة والسنّة على حد سواء.

ولا يمكن مقارنة سند هذا الحديث ومعانيه، وما يؤيده من أدلة وبراهين من الكتاب والسنّة والعقل، مع حديث "كتاب الله وسنّة نبىّه" الذى لا سند له يمكن الاعتماد عليه رغم شيوعه بين العوام من الناس، بيد أنه لم يذكر فى صحيح البخارى ولا فى صحيح مسلم ولا أى واحد من الصحاح الستة! فرب مشهور لا أصل له! فلم يُرو الحديث هذا عن أعلام السنّة، سوى القليل كابن حجر فى الصواعق، وهو خبر مرسل دون سند، ومالك بن أنس حيث نقله فى الموطأ، وهو خبر مرفوع لا سند له.. فقد قال راوى الموطأ: (حدثنى عن مالك أنه بلغه أن رسول الله قال: ... الحديث) [٨] فقد رفعه من دون ذكر سند.. ولسنا فى صدد البحث فى هذا الحديث، ففى حديث الثقلين؛ (كتاب الله وعترتى) ما يغنيننا عن الغور فى ما سواه.

و واضح أن السبب فى تأليف هذا الحديث هو تعرض حديث الثقلين لما تعرضت له باقى الأحاديث المروية فى فضائل أهل البيت من تحريف و تزوير من قبل من باع آخرته بدنبا غيره من الرواة و المحدثين، الذين عمدوا إلى أحاديث رسول الله فأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم و لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره و لو كره الكافرون..

ولا إشكال في اختلاف ألفاظ حديث الثقلين لأن ذلك عائد إلى تكرار ذكر الحديث من قبل النبي في عدة أماكن ومواقف وكذلك وسعة دائرة الرواة، ولا يوجد أى تعارض بين مفاد هذه الأحاديث مطلقاً.

قال سماحة العلامة السيد شرف الدين q في كتاب المراجعات [٢] بعد الاستشهاد بحديث الثقلين: (والصاحح الحاكمة بوجوب التمسك بالثقلين متواترة، وطرفها عن بضع وعشرين صحابياً متضافرة، وقد صدع بها رسول الله (ص) في مواقف له شتى: تارة يوم غدِير خَم كما سمعت، وتارة يوم عرفة في حجة الوداع، وتارة بعد انصرافه من الطائف، ومرة على منبره في المدينة، وأخرى في حجته المباركة في مرضه، والحجرة غاصة بأصحابه إذ قال: (أيها الناس يوشك أن اقْبُض قبضاً سريعاً فينطلق بى، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا إني مخلف فيكم كتاب الله عز و جل، وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال: هذا على مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على الحوض) الحديث. وقد اعترف بذلك جماعة من أعلام الجمهور، حتى قال ابن حجر: (ثم اعلم إن لحديث التمسك بهما طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً..) وفي بعض تلك الطرق أنه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنه قاله بالمدينة في مرضه، وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أخرى أنه قال ذلك بغدير خم، وفي أخرى أنه قال ذلك لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف كما مر ولا تنافي، إذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعتره الطاهرة..) [٣].

أما عدد رواة الحديث من الصحابة فهو ٣٨ صحابياً منهم:

(١) علي بن أبي طالب (ع).

(٢) الحسن بن علي بن أبي طالب (ع).

(٣) الحسين بن علي بن أبي طالب (ع).

(٤) جابر بن عبد الله

(٥) خزيمه بن ثابت

(٦) زيد بن ثابت

(٧) سهيل بن سعد

(٨) ضميره الأسدي

(٩) عامر بن أبي ليلي الغفاري

(١٠) عبد الرحمن بن عوف

ص: ٥١

(١١) عبد الله بن عباس

(١٢) عبد الله بن عمر

(١٣) عدى بن حاتم

(١٤) عقبة بن عامر

(١٥) زيد بن أرقم

(١٦) أبو ذر الغفاري

(١٧) أبو رافع

(١٨) أبو ضريح الخزاعي

(١٩) أبو قدامة الأنصاري

(٢٠) أبو هريرة

(٢١) أبو الهيثم بن التيهان

(٢٢) أم سلمة

(٢٣) أم هانئ بنت أبي طالب

(٢٤) أبو سعيد الخدري

(٢٥) حذيفة بن أسيد وغيرهم

وقد تواتر هذا النقل أيضاً في عهد التابعين، وإليك بعض من نقل منهم حديث (كتاب الله وعترتي):

(١) زين العابدين علي بن الحسين O

(٢) عطية بن سعيد العوفي

(٣) حنش بن المعتمر بن علي بن أبي طالب

ص: ٥٢

- (٤) الحارث الهمداني
(٥) حبي بن أبي ثابت
(٦) علي بن ربيعة
(٧) القاسم بن حسان
(٨) حصين بن سيرة
(٩) عمرو بن مسلم
(١٠) أبو الضحى مسلم بن صبيح
(١١) يحيى بن جعدة
(١٢) الأصمغ بن نباته
(١٣) عبد الله بن أبي رافع
(١٤) المطلب بن عبد الله بن حنطب
(١٥) عبد الرحمن بن أبي سعيد
(١٦) عمر بن علي بن أبي طالب
(١٧) فاطمة بيت علي بن أبي طالب
(١٨) الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب
(١٩) أبو الطفيل عامر بن واثلة وغيرهم.

وقد نقل الحديث أكثر من ٣٢٣ شخصا من أعلام الأمة وحفاظ الحديث ومشاهير الطائفة بعد الصحابة والتابعين، وقد ذكرهم بالتفصيل العلامة المحدث الخبير الشيخ مير حامد حسين الهندي في كتابه "عبقات الأنوار" الذي يقع في عشرات المجلدات، وهو بحق سفر عظيم لم ير مثله، وقد جمع المؤلف q مئات المصادر التي تناقلت وروت حديث الثقلين من كتب أهل السنة، وقد تم حتى الآن تليخيص بعض مجلداته الضخمة، كما يقع ملخص كتاب أسناد حديث الثقلين عند السنة في أكثر من ألف صفحة!

١- وقد ورد الخبر في كتب الحديث المعتمدة عند أهل السنة منها صحيح مسلم - ج ٤ ص ١٢٣ دار المعارف - بيروت لبنان، (الحديث رقم ٤٤٢٥ - موسوعة الحديث الشريف - الإصدار الثاني). وذلك بثلاث طرق ترجع إلى حيان بن سعيد التميمي الذي وثقه الذهبي في تهذيبه وكذلك اليافعي في مرآة الجنات [٤]، والعسقلاني في تقريب التهذيب [٥].

كما لا يخفى أن كون الحديث مرويا في صحيح مسلم حاكم على صحته عند أهل السنة، لإجماعهم على تصحيح كل رواياته، كما صرح بذلك مسلم نفسه والنووي وغيره ممن لا يسع المقام لإيرادهم ولبداهة المدعى.

٢- رواية الحديث عند الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري في مستدرکه على البخارى، ومسلم: ج ٣ ص ٢٧ باب معرفة الصحابة، دار المعرفة، بيروت - لبنان. وذلك بأربعة طرق ومما يدل على صحة الحديث وتواتره أن الحاكم أخرجه وحكم بصحته على شرط البخارى ومسلم.

٣- مسند أحمد بن حنبل وذلك بتسعة طرق مختلفة في ج ٣ ص ١٧ وص ٢٦ وص ١٤ وغير ذلك (كما سيأتى في باب نصوص الأحاديث).

٤- سنن الترمذى ج ٥ ص ٦٦٢-٦٦٣ دار إحياء التراث العربى بيروت - لبنان. وقد أورد الحديث بطريقتين مختلفتين، أحدهما عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصارى t والآخر عن زيد بن أرقم.

٥- كما أورد هذا الحديث الشيخ علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندي المتوفى سنة ٩٧٥هـ في كتابه "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" وذلك في ج ١ ب ٢، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ص ١٧٢ طبعة مؤسسه الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٨٥م وهو الحديث رقم ٨١٠ و ٨٧١ و ٨٧٢ و ٨٧٣.

ولو استرسلنا في هذا الباب لإيراد الكتب التى روته وتوثيق رواته لطلال بنا المقام ولاحتاج موسوعة لوحدها. وللتفصيل راجع كتاب إحقاق الحق للشيخ أسد الله التستري ج ٩ ص ٣١١، وكذلك موسوعة عبقات الأنوار - كتاب حديث الثقلين - وسوف نذكر هنا مجموعة من الحفاظ والعلماء الذين رووا الحديث كنموذج لا للحصر.

(١) الحافظ الطبرانى المتوفى سنة ٣٤٠ فى (المعجم الصغير).

(٢) الشيخ محبّ الدين الطبرى (فى ذخائر العقبى).

(٣) الشيخ إبراهيم بن محمد بن أبى بكر الحموينى فى (فرائد السمطين).

(٤) ابن سعد فى طبقاته الكبرى.

(٥) الحافظ نور الدين الهيثمى فى (مجمع الزوائد).

(٦) الحافظ السيوطى فى (إحياء الميت).

(٧) الحافظ العسقلاني في (المواهب اللدنية).

(٨) الشيخ النبھاني في (الأنوار المحمّدية).

(٩) الشيخ الدارمي في سننه.

(١٠) الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي في (السنن الكبرى).

(١١) الشيخ البغوي في (مصاييح السنة).

(١٢) الحافظ أبو الفداء بن كثير الدمشقي في (تفسير القرآن).

(١٣) وفي (جامع الأصول) لابن الأثير.

(١٤) أحمد بن حجر الهيتمي المكي في كتابه (الصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة) الطبعة الثانية سنة ١٩٥٤م
مكتبة القاهرة - شركة الطباعة الفنية المتحدة -

وفي رواية عن الطبراني عن ابن عمر: آخر ما تكلم به النبي (ص): (اخلفوني في أهل بيتي). وفي أخرى عند الطبراني وأبي
الشيخ: (أن لله ثلاث حرّمات فمن حفظهن حفظ الله دينه ودينه، ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله دينه ولا آخرته. قلت ما هن؟
قال حرمة الإسلام وحرمتي وحرمة رحمي).

وفي رواية للبخاري عن أبي بكر من قوله (يا أيها الناس أرغب محمد في أهل بيته؟! أي احفظوه فيهم فلا تؤذوهم).

وأخرج ابن سعد الملاء في سيرته: أنّه قال: (أستوصي بأهل بيتي خيرا فإنّي أخاصمكم عنهم غدا ومن أكنّ خصمه ومن أخصمه
دخل النار)، وأنّه قال: (من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهدا).

وروي أيضا (أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن شاء اتخذ إلي ربه سبيلا) [٦]، والثاني حديث: (في كلّ
خلف في أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ألا إن أئمتكم
وفدكم إلى الله عز و جل فانظروا من توفدون..) ثمّ قال: سمى رسول الله (ص) القرآن وعترته - وهي بالمشناة الفوقية، الأهل
والنسل ورهط الأدنون - تقنين، لأنّ الثقل كلّ نقيس خطير مصون وهذان كذلك، إذ كلّ منهما معدن للعلوم اللدنية والأسرار
والحكم العليا والأحكام الشرعية، ولذا حتّ رسول الله (ص) على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم وقال: (الحمد لله الذي
جعل فينا الحكمة أهل البيت).

وقيل: سمياً ثقلين لوجوب رعاية حقوقهما، ثم الذين وقع الحث عليهم منهم إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض. ويؤيدهم الخبر السابق (ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)، فتميزوا بذلك عن بقية العلماء، لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً [٧].

فيا عجباً من قوله هذا وهو من ألدّ الخصام لاتباع أهل البيت وهو الذي يصنفهم من الفرق الضالّة الكافرة ويعتبرهم من الزنادقة! هذا وهو يدعى حبّ أهل البيت ووجوب الانقطاع في أخذ الدين عنهم ويعترف بلزوم التمسك بهم وهو الذي يعقّبهم بالأخذ من أعدائهم وسبّ شيعتهم ومحبيهم الموالين لهم.

أفلا ينبغي لمن علم بعلو مقام أهل البيت ورفعة منزلتهم لدى الله عز و جل أن يتخذ منهم قدوة وأسوة ونبراساً ينيّر به الطريق؟!

[١]- موطأ مالك: ج ٢ ص ٤٦.

[٢]- ص ٥١ في المراجعة رقم ٨.

[٣]- انتهى ما أردنا نقله من كتاب المراجعات. و تجد ما نقله السيد Q من كلام ابن حجر في ص ٧٥ و ص ٨٩ من صواعقه.

[٤]- ج ١ ص ٣٠١، نقلاً عن كتاب "الحقيقة الضائعة".

[٥]- ج ٢ ص ٣٤٨.

[٦]- ربما يكون إشارة إلى قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى) وقوله تعالى: (لا أسألكم عليه أجراً إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) والجمع بينهما.

[٧]- الصواعق المحرقة لابن حجر.

اما بعد

قال رسول الله (ص):

من سرّه أن يحيى حياتى ويموت مماتى ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوالِ عليّاً من بعدى وليوالِ وليّه وليقتد بالأئمة من بعدى فإنهم عترتى، خلّقوا من طينتى، رزقوا فهماً وعِلماً، وويل للمكذّبين بفضلهم من أمتى، القاطعين فيهم صلتى، لا أنالهم الله شفاعتى.

أخرجه الحافظ أبو نعيم

فى حلية الأولياء ج ١ ص ٨٠

إذا توقف المرء يتأمل واقع الأمة ومشاكلها وما تعيشه من تفكك، و هو دون شك نتيجة عدم تمسكها بأهل البيت، بالرغم من السيل الهائل من الروايات والأحاديث النبوية فى فضلهم، لعرف أن المشكلة لا تكمن فى سند الأحاديث الواردة أوفى دلالتها على أفضليتهم على سائر الناس أو ما شابه ذلك، وإنما المشكلة هى أن البعض وضعوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) لمصالح دنيوية حالت دونهم و المعرفة و أغلقت منافذ عقولهم عن الحقيقة الوطّائة. فمن المصائب التى تعرّض لها النبى الأكرم الذى قال: (ما أودى نبى بمثل ما أوديت) هى تكذيب الناس له بعد أن كان يعرف ب"الصادق الأمين". فقد كذّب النبى فى بدء التبليغ و إلى آخر عمره الشريف، حتى آل الأمر بأحد صحابته إلى القول بكلّ وقاحة: (إنه ليهجر، حسبنا كتاب الله!) [١]. وكان ذلك فى آخر لحظات عمره الشريف، وحين أمر بدواة وكتف حتى يكتب للناس كتاباً لن يضلوا بعده أبداً.

وبذلك أظهر هذا الأخير كمال معرفته بالنبى! وكأنه لم يقرأ ولم يسمع قوله تعالى فى سورة النجم: (وما ينطق عن الهوى ! إن هو إلاّ وحي يوحى)..

فالويل لأمة اتهمت نبيها بالهجر والغلط، والرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب الذى كان سيمنع شتات الأمة و يجمعهم على كلمة سواء بينهم..

فإذا كان البعض يقول هذا والنبى أمامهم، فكيف بهم بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام.. ألا يكذبونه ويضعون أصابعهم فى آذانهم متجاهلين أوامره؟ وقد قال تعالى فى كتابه المنزل: (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). فقد تجاهل البعض هذه الأحاديث، وأنكرها البعض الآخر أو حرّفها.. والواقع هو أنه لا مفر من هذه الحقيقة، فيجب على كل مسلم بعد أن عرف باختلاف الناس أن يسعى وراء الفرقة الناجية المحققة، فهل بعد الحق إلا الضلال؟!.. ولا يجوز لأحد أن يختار مذهبه بالوراثة أباً عن جد، ليصبح مصداقاً لقوله تعالى: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون).. ولا يمكن أن يتجاهل أحد هذه

ص: ٥٧

الأحاديث بقوله: "أن هذه الأدلة قد ردّ عليها علمائنا وفقهائنا" لينطبق عليه قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله).

فحديث الثقلين وكل ما استشهدنا من الأخبار مروى في كتب السنة وبذلك حجة عليهم على النحو الذى مرّ، ودلالاته دلالات عقلية متقنة، تؤيدها شواهد عقلية محكمة. وبما أن مفهوم الوحدة الإسلامية وسيلة للوصول إلى الهدف الأسمى الذى يكمن فى إعلاء كلمة الحق ونشر الإسلام فى الأرض، ينبغى أن يكون محور هذه الوحدة التمسك بالقرآن الكريم، وأهل البيت (ع)، والسنة - ومنها حديث الثقلين الذى يدعو إلى اتباع مدرسة أهل البيت - فلا يمكن أن يكون الاتحاد على أساس تجاهل مثل هذه الأحاديث والإعراض عن الحق. إذن فما الغرض من الوحدة؟ ولا يمكن أن يتحد المسلمون إلاّ بالأخذ بكلام النبى والتمسك بحذافيره والتسليم له فى كل ما يجىء به من عند الله الواحد القهّار، وأهل بيته من بعده.

وأما بعد، فإن حديث الثقلين، المجمع على صحته، والصريح فى دلالاته، لا يترك لنا خياراً إلاّ وجوب العمل بالقرآن حسب منهج أهل البيت (ع) وعلى هدى طريقهم. وإلاّ فإن الابتعاد عن هذا المنهج، هو انحراف عن طريق القرآن، وضلالة عن الصراط المستقيم.

فيا أيها المسلمون الطالبون للحق والتاركون أهواء الذين لا يعلمون، أنا لكم ناصح أمين، اتبعوا كلام نبيكم واسمعوه واعقلوه عقل دراية وأحذركم يوم القيامة أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبرائنا فأضلّونا السبيل أو تقولوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير واحذروا إذ تبرّأ الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا ولا تكونوا من الذين قالوا بل ننبع ما ألفينا عليه آباءنا.

والسلام على من اتبع الهدى..

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)

[٨]- راجع صحيح البخارى (كتاب العلم): ج ١ ص ٣٠، صحيح مسلم وغيره من كتب الحديث و التاريخ.

أما نصوص الحديث فى الصحاح الستة فنوردها فيما يلى مع ذكر السند ورقم الحديث كما فى موسوعة الحديث الشريف - الإصدار الثانى - ومن أراد التدقيق فليراجع.

حدّثنى زهير بن حرب وشجاع بن مخلّد جميعا عن ابن جليه قال زهير حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم حدّثنى أيوحيان حدّثنى زيد بن حيّان قال انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا حدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله. قال: يا بن أخى، والله لقد كبر سنّى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله، فما حدّثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفونيّه، ثمّ قال: قام رسول الله (ص) يوما فينا خطيبا بماء يدعى خمّا بين مكّة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثمّ قال: أمّا بعد ألا أيّها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول الله ربّى فأجيب وأنا تاركٌ فيكم الثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه. ثمّ قال: وأهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قال كلّ هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

وحدّثنا محمّد بن بكار بن الرّيان حدّثنا حسّان يعنى ابن إبراهيم عن سعيد بن مسروق عن يزيد بن حيّان عن زيد بن أرقم عن النبى (ص). وساق الحديث بنحوه بمعنى حديث زهير حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبه حدّثنا اسحق بن إبراهيم أخبرنا جرير كلاهما عن أبى حيّان بهذا الاستناد نحو حديث إسماعيل، وزاد فى حديث جرير: كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضلّ.

حدّثنا محمد بن بكار بن الرّيان حدّثنا حسان يعنى ابن إبراهيم عن سعيد وهو ابن مسروق عن يزيد بن حيّان عن زيد بن أرقم قال دخلنا عليه فقلنا له: لقد رأيت خيرا صاحبت رسول الله (ص) وصليت خلفه.. وساق الحديث بنحو حديث أبى حيّان، غير أنّه قال: ألا وإنّى تارك فيكم الثقلين، أحدهما كتاب الله عز و جل هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة. (وفيه) فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وأيم الله إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثمّ يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله الذى حرموا الصدقة وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده [٨].

حدّثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو إسرائيل يعني إسماعيل الملائى عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله (ص): إننى تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض [٢].

حدّثنا أبو النضر حدثنا محمد يعنى ابن طلحة عن الأعمش عن عطية العوفى عن أبي سعيد الخدرى عن النبى (ص) قال: إنى أوشك أن أدعى فأجيب وإننى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله عز و جل وعترتى، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى. وإن اللطيف الخبير أخبرنى أنّهما لن يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض، فانظرونى فيم تخلفونى فيهما [٣].

حدثنا ابن نمير حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان عن عطية عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله (ص): قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله عز و جل حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى إلاّ إنّهما لن يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض [٤].

حدثنا ابن نمير حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان عن عطية العوفى عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله (ص): إنى قد تركت فيكم ما به لن تضلوا بعدى الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله عز و جل حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى إلاّ إنّهما لن يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض [٥].

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبى حيان التيمى حدثنى يزيد بن حيان التيمى قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. رأيت رسول الله (ص): وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه، لقد رأيت يا زيد خيرا كثيرا.

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله (ص) ؟ فقال: يا ابن أخى والله لقد كبرت سنّى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله (ص) ، فما حدثتكم فاقبلوه وما لا فلا تكلفونيّه. ثمّ قال: رسول الله يوما خطيبا فينا بماء يدعى خمّا بين مكّة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثمّ قال: أمّا بعد، ألا يا أيّها الناس، إنّما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربّى عز و جل فأجيب، وإننى تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله عز و جل فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به، فحثّ علىّ كتاب الله ورغّب فيه. ثمّ قال: وأهل بيتى، أذكركم فيه فى أهل بيتى، أذكركم فيه فى أهل بيتى، أذكركم فيه فى أهل بيتى. فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إنّ نساءه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. قال أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم [٦].

حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل بن عثمان بن المغيرة عن عبي بن ربيعة قال: لقيت زيد بن أرقم وهو داخل على المختار أو خارج من عنده، فقلت له: أسمعت رسول الله (ص): يقول: إني تارك فيكم الثقلين. قال: نعم [7].

حدثنا الأسود بن عامر حدثنا شريك عن الركين عن القاسم بن حسان عن زيد بن ثابت قال: رسول الله (ص): إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض [8].

حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا شريك عن الركين عن القاسم بن حسان عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله (ص): إني تارك فيكم خليفتين، كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض جميعا [9].

حدثنا جعفر بن عون حدثنا أبو حيان عن زيد بن حبان عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله (ص) يوما خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيبه وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله خذوا به، فحثّ عليه ورغب فيه. ثم قال: (وأهل بيتي، أذكركم في أهل بيتي) ثلاث مرّات [10].

حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي حدثنا زيد بن الحسن هو الأنماطي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله (ص) حجته يوم عرفة وهو على ناقه الصقواء يخطب، فسمعته يقول: يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي.

قال: وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد، قال: وزيد بن الحسن قد روى عنه سعيد بن سليمان وغير واحد من أهل العلم [11].

حدثنا علي بن المنذر الكوفي حدثنا محمد بن فضيل حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد والأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله (ص): إني تارك فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

قال هذا حديث حسن [12].

عيسى بن عبد الله بن مالك عن عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله (ص) يقول: أيها الناس إني فرط لكم وإنكم واردون عليّ الحوض، حوضا عرضه ما بين صنعاء إلى بصرى فيه قدحان عدد النجوم من فضة وإني سأتلکم حين تردون عليّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، السبب الأكبر كتاب الله طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم،

فاستمسكوا به ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. فقلت: يا رسول الله من عترتك؟ قال: أهل بيتي من ولد علي وفاطمة وتسعة من صلب الحسين، أئمة أبرار، هم عترتي من لحمي ودمي [١٣].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليماً كثيراً.

[١] - صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة) باب فضائل الإمام علي: ج ٧ ص ١٢٣ ط دار المعرفة بيروت، رقم ٤٤٢٥.

[٢] - مسند أحمد: رقم ١٠٦٨١١.

[٣] - مسند أحمد كتاب باقى مسند المكثرين، باب الخدرى ج ٣ ص ١٧ ط دار صادر بيروت رقم ١٠٧٠٧.

[٤] - مسند أحمد كتاب باقى مسند المكثرين، باب الخدرى ج ٣ ص ٢٦ ط دار صادر بيروت رقم ١٠٧٧٩.

[٥] - مسند أحمد كتاب باقى مسند المكثرين، باب الخدرى ج ٣ ص ٥٩٧ ط دار صادر بيروت رقم ١١١٣٥.

[٦] - مسند أحمد كتاب أول مسند الكوفيين، باب حديث زيد بن أرقم ص ٣٦٧ ط دار صادر بيروت رقم ١٨٤٦٤.

[٧] - مسند أحمد كتاب أول مسند الكوفيين، باب حديث زيد بن أرقم ص ٣٧١ ط دار صادر بيروت رقم ١٨٥٠٨.

ص: ٦٢

[٨]- مسند أحمد كتاب مسند الأنصار، باب حديث زيد بن ثابت ص ١٨٢ ط دار صادر بيروت رقم ٢٠٥٩٦.

[٩]- مسند أحمد كتاب مسند الأنصار، باب حديث زيد بن ثابت ص ١٨٩ ط دار صادر بيروت رقم ٢٠٦٦٧.

[١٠]- مسند أحمد: رقم ٣١٨٢.

[١١]- سنن الترمذى (كتاب المناقب عن الرسول، باب مناقب أهل بيت النبى) ص ٢٦٢ رقم ٣٧١٨ ط دار إحياء التراث العربى - بيروت.

[١٢]- سنن الترمذى (كتاب المناقب عن الرسول، باب مناقب أهل بيت النبى) ص ٢٦٣ رقم ٣٧٢٠ ط دار إحياء التراث العربى - بيروت.

[١٣]- كفاية الأثر: ص ٩١، تفسير البرهان: ج ١ ص ٩، نقلا عن ابن بابويه فى كتاب "النصوص على الأئمة".